المحفزات

من السّموع إلى سيناء

عشر مدرعات، وأربعون نصف مجنزرة، وأربعمئة رجل - أكبر قوة ضاربة إسرائيلية حشدت منذ حرب العام ١٩٥٦- عبرت حدود الضفة الغربية قبيل اليوم الثالث عشر من نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٦٦. غاية العملية معاقبة القرى الفلسطينية في منطقة الجليل التي كانت تساعد فدائيي فتح وتؤويهم. إذ سوف تتوسل تلك القرى إلى الملك حسين ليضغط على فتح، أو هكذا ظن الإسرائيليون. كما أن عرض القوة النارية المفرطة ربما يحدث لدى الأردنيين انطباعاً بمدى الانتقام الذي سيلحق بهم في المستقبل، ويحذر السوريين أيضاً. وكان لا بد للهجوم من أن يكون نظيفاً في المكاسب والمخاسر، مع توقع مقاومة ضئيلة وعدم مواجهة مع الفيلق العربي الأردني الذي ذكرت التقارير أنه غير موجود في المنطقة.

تقدم الرتل الإسرائيلي تحت غطاء مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلي إلى رجم المدفع (Rujm al-Madfa) على بعد عشرة أميال إلى الجنوب الغربي من مدينة الخليل، ومسحت مركز الشرطة عن الأرض. أما الهدف الثاني فكان قرية السّموع التي يبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة وتعتبرها إسرائيل مكاناً رئيساً لتجمع الإرهابيين. واستجاب غالبية أهل القرية لأوامر الجيش الإسرائيلي التي صدرت إليهم بالتجمع في ساحة القرية، ثم تقدم مهندسوا الألغام من لواء المظليين الخامس والثلاثين ونسفوا عدداً كبيراً من البيوت في جميع أنحاء القرية، كل ذلك كان يسير حسب الخطة عندما ذكرت وحدة الاستطلاع في الساعة السابعة والنصف صباحاً: إن جنوداً أردنيين في طريقهم إلى المكان قادمين من الجهة الشمالية الغربية.

كانوا حوالي مئة رجل من لواء مشاة (حطين) بقيادة العميد بهجت المحسن تحملهم قافلة من عشرين عربة. كان العميد المحسن يقود جنوده إلى يطّا، إحدى قرى الخليل، حيث وردت تقارير تشير إلى وجود نشاط معاد هناك بيد أن الطريق الملتوية الوعرة إلى يطّا تمر من السّمّوع؛ وكان هناك كمين إسرئيلي. فاشتعلت النار في ثلاثة أرباع القافلة؛ قتل ١٥ جندياً وجرح ٥٤. غير أن الأردنيين واجهوا الإسرائيلين وقاتلوهم فجرحوا عشرة مظليين وقتلوا قائد الكتيبة، الكولونيل يوآف شاهام (Yoau Sha ham)، ودوّى في الأجواء هدير طائرات هنتر (Hunter) الأردنية، فتصدى لها الاسرائيليون وأجبروها على العودة بعد إسقاط إحداها.

وهكذا تحولت الضربة التي أريد لها أن تكون سريعة وجراحية إلى معركة ضارية التحم فيها جيشان. (١)

لقد صعق القادة الإسرائيليون، ليس فقط بسبب الخسائر العسكرية. إذ قتل ثلاثة مدنيين من العرب وجرح ٩٦، وعندما أعلن الجيش الإسرائيلي أنه دَمَّر أربعين منزلاً. قَدَّرت الأمم المتحدة عدد الضحايا المدنيين بثلاثة أضعاف العدد الذي ذكرته السلطات الإسرائيلية. وبالتالي طالب الفلسطينيون بإسقاط الملك بدلاً من أن يلتمسوا إليه طالبين الحماية.

فعمت الاضطربات المنطقة: من الخليل إلى القدس إلى نابلس في الشمال ورشق المتظاهرون مكاتب الحكومة بالحجارة وأحرقوا صور الملك وتماثيله. الأمر الذي اضطر جنود الفيلق العربي الأردني إلى إطلاق النار فقتل أربعة فلسطينين وجرح العشرات.

وهكذا انعكس مفعول العملية شريدر (Sherdder)، كما أسماها الإسرائيليون، انعكاساً واضحاً. إذ وجه مجلس الأمن اللوم إلى إسرائيل لخرقها ميثاق الأمم المتحدة واتفاق الهدنة العامة بين إسرائيل والأردن وأنذرها باتخاذ خطوات فعّالة ضدها.. لضمان عدم تكرار مثل هذه الأعمال. (٢)

إن ما أزعج إسرائيل وسبب لها إشكالات أكثر هو ردة فعل الولايات المتحدة التي لم يسبق لها مثيل في عهد جونسون.

فقد شعر الأمريكيون بالهلع من استهتار إسرائيل الواضح، ومن رغبتها في نسف الزعيم العربي الوحيد الذي تربطها به علاقات حميمة، الزعيم العربي المعتدل الموالي للغرب، والذي يناضل ضد أمواج البحر الراديكالية. وأشارت الولايات المتحدة إلى أن الملك حسين قد وافق على طلب إسرائيل في إبقاء دبابات باتون التي اشتراها حديثاً شرقي النهر بعيداً عن الحدود. أما الآن وقد اشتعلت الضفة الغربية ناراً فإنه سوف يتحلل من هذا التعهد.

سمع إيبان (Eban) أثناء زيارته إلى واشنطن من معاون وزير الخارجية الأمريكي نيكولاس كاتزيذباخ (Nicholas Katzenbach) اللوم التالي: «لقد دفعتم به (الملك حسين) إلى أسوأ وضع، وجعلتم الحياة صعبة جدا بالنسبة إليه. وعليكم الآن أن تتحملوا نتائج ما فعلتم».

وهاجم روبرت دبليو كومر (Robert W."Mad Bob" Komer) العضو الإسرائيلي العجوز في مجلس الأمن القومي إيبان «لفتحه مصدراً جديداً من مصادر الاضطراب في الشرق الأوسط، ونسف عقيدة توازن القوى الأمريكية القائمة على الحفاظ على الوضع القائم في الأردن، وعزلها عن الانسياق وراء مصر أو سورية أو الفلسطينيين». وتساءل كومر: لماذا هاجمت إسرائيل الأردن في حين أن الحكومة الوحيدة التي تناصر الإرهاب وتدعمه هي سوريا، وعندئذ يمكن أن يُفهم تصرفكم ضد سوريا.

أما مستشار الأمن القومي. والت دبليو روستو (Walt W.Rosto) فقد ذهب إلى أبعد من ذلك ملمحاً إلى أن إسرائيل «رغبت، لأسباب ماكيافيلّية، في وجود نظام يساري على الجانب الأيسر من الضفة من أجل استقطاب موقف يكون الروس فيه داعمين للعرب، وتكون الولايات المتحدة داعمة لإسرائيل، وبحيث لا تكون إسرائيل في وضع حرج عندما يقيم أحد أصدقائها من القوى العظمى علاقة صداقة مع بلد عربي». (٣)

إن محاولات إيبان لتوضيح غزوة السمّوع بأنها «رد فعل مفرط» على الإرهاب العربي، أو بأنها «تدريب على الاستخدام المسيطر عليه للقوة المحدودة» الذي أفشله تدخل ظروف لم تكن بالحسبان، لقد فشلت هذه الغزوة في إثارة أي تعاطف لدى الآخرين، حتى ولا رسالة إشكول إلى الرئيس جونسون التي اعترف فيها رئيس الوزارة بارتكاب خطأ. ولكنه طلب من الرئيس الأمريكي أن يقدر حالة إسرائيل ووضعها، قائلاً: «من المهم جداً أن يفهم الأصدقاء بعضهم البعض في ساعاتهم العصيبة، وهذه من الساعات العصيبة التي نعيشها». فلم يرد جونسون على الرسالة.

بل أرسل إلى الملك حسين يعبر فيها عن حزنه للأرواح التي أزهقت دون مسوّغ، وعن دعمه لسلامة الأراضي الأردنية. إن وزارة الخارجية التي فشلت في إيصال رسالة التعزية التي بعثت بها الحسين إلى إشكول، ترفض الآن إيصال تعزية إشكول إلى الحسين. (٤)

ولدى عودة إشكول إلى إسرائيل حاول أن يُجمِلَ الموقف، فقال: إلى سكرتارية حزب الماباي: على العرب أن يفهموا بعد عملية السمّوع أننا نعني «العمل»، مستخدماً الكلمة الإنكليزية (business) وتابع القول: «سوف يعلمون أننا عنينا ما قلناه عندما أقسمنا أننا لن نقبل أن نقتل في هذا البلد، لا بالجملة ولا بالمفرق، وليس بدون رد».

فنهض الجنرالات ليؤكدوا أن الغارة برهنت على هشاشة الفيلق العربي الأردني، وأثبتت أن إسرائيل قد استعادت قدرتها الرادعة وأنها لفتت انتباه العالم إلى مخاطر الإرهاب العربي.

ومع ذلك لم تؤثر هذه العملية في العديد من الإسرائيليين، وزراء وموظفين. ومن بينهم الكولونيل إسرائيل ليور (Israel Lior) المساعد العسكري لإشكول والمراقب الذكي لسياسات النسق الأعلى. إذ ذكر في يومياته قائلاً: «من الواضح أننا وقعنا في فخ نحن صنعناه بأيدينا. فلقد أنذرنا السوريين باستمرار، وخلقنا جواً من الرد المعلّق في الشمال – ثم ضربنا الأردن».

حتى رابين نفسه بدا متفقاً مع هذا التقييم، فقدم استقالته بصورة رسمية. (٥)

مما لا شك فيه أن المصالح الإسرائيلية والأمريكية قد تضررت بسبب غارة السموع، ولكن ليس بخطورة الضرر الذي أصاب المصالح الأردنية. فالحسين بن طلال بن عبد الله البالغ من العمر ٣١ عاماً نجا مما لا يقل عن اثنتي عشر محاولة انقلاب واغتيال منذ أن تسلَّم سدة العرش وهو في العقد الثاني من عمره في العام ١٩٥٣. كان قصير القامة أنيقاً رشيقاً ذا سلوك مهذب، يخفي وراءه عناداً داخلياً وذاكرة قوية تمكنه من تلافي التهديدات المتوالية من العربية السعودية والعراق وسوريا ومصر. وكان مقتنعاً أن الإسرائيلين لم يتخلوا أبداً عن حلمهم في التوسع: الإقليمي على حساب الأردن. قال للسفير الأمريكي، فندلي بيرنز الصغير (Findley Burns jr.) «إنهم يريدون الضفة الغربية، وينتظرون فرصة سانحة للاستيلاء عليها، وسوف يستغلوننا ويهاجموننا».

بدا وكأن هذه المهالك قد التقت كلها في الهجوم على السموع. إن راديو القاهرة الذي كان قد اتهم الملك حسين بأنه يقود مؤامرة للمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) للاستيلاء على سورية، واتهمه بالتآمر على مصر، قد أدانه الآن لرفضه نشر قوات عراقية وسعودية في الضفة الغربية، والتخلي عنها للعدوان الإسرائيلي. أما سورية فقد عَرَّضت به بصورة مباشرة إذ اعتبرت غارة السموع نتيجة للتآمر المشؤوم بين «النظام الأردني الرجعي والصهيونية الإمبريالية». (٦)

لم يكن لدى الحسين، الذي رأى جده يقتل برصاص مغتال فلسطيني، أية أوهام بشأن هذه المخاطر. وعلى الرغم من أنه محبوب جداً أو بحماس من قبل الأردنيين من سكان شرق الأردن، فإن غالبية رعيته من الفلسطينين الذين كان ولاؤهم إلى الشقيري في أحسن الأحوال، وإلى عبد الناصر وسوريا وفتح في أسوأ الأحوال. وبعد غارة السموع أكد زعيم م. ت. ف علنا أن «عمان إلـ ١٩٤٨ هي نفسها عمان إلـ ١٩٦٦؛ ولم يتغير شيء» وانطلقت دعايته من القاهرة تطالب الجيش الأردني بالإطاحة بالنظام الملكي.

ولم يكن بوسع الحسين التقليل من أهمية المدى الشرير الذي ستصله الحكومات العربية للإطاحة به، مستذكراً مقتل أحد عشر رسمياً أردنيا بمن فيهم رئيس الوزراء الأردني هزاع المجالي بقنبلة مصرية في العام ١٩٦٠.

والآن، في ظل ظروف العام ١٩٦٦ الزئبقية، كان الملك يرى عدة سيناريوهات تسعى بموجبها إسرائيل لابتلاع الأرض ولكنها كانت تخشى مصر وسورية، ولهذا ربما تغزو الضفة الغربية. وتوقع الحسين أن الدول العربية ستقف جانبا تراقب الأحداث في الوقت الذي هب فيه الفلسطينيون ثائرين. (٧)

تنبأ الجنرال إندار جيت ريكهاي (Indar Jit Rikhye) قائد قوات الطوارئ الدولية في سيناء في حديث إلى ضباطه حول الآثار التي نجمت عن السموع، قائلاً: «ربما يكون ضعف الحسين هو حجر الزاوية الذي تقوم عليه التحالفات العربية (ضد إسرائيل) في المستقبل. ربما يكون الملك حسين ضعيفاً، ولكنه كان يرفض دائماً أن يكون سلبيا. فآوى سليم حاطوم وغيره من الضباط المتورطين في الانقلاب المحبط في دمشق. وأغلق مكتب م. ت. ف في عمان، واعتبر المنظمة كلها غير شرعية، وأعلن الأحكام العرفية. ومع ذلك بذل جهوداً ليبدو أنه على استعداد للمصالحة. فوزع البنادق على القرويين في الضفة الغربية، وطبق نظام التجنيد الالزامي على الفلسطينين الرجال. ثم نشر، بحركة درامية مذلة، رسائل كان بعثها سراً إلى عبد الناصر بعد قمة الدار البيضاء، سأل فيها الزعيم المصري: «هل سنكون كبش فداء جديد؟ هل سيتكرر توجيه الاتهامات إلى بلد يمكن أن يكون نقطة انطلاق لعمل ضد العدو؟ هل سنترك كارثة الـ ١٩٤٨ تتكرر؟ فلم لا نعفو عما مضى وننظر إلى المستقبل؟ ضع نفسك مكاني وقل لي ماذا ستفعل؟» كما أبدى مثل هذا الميل نحو سوريا إذ قال لمجلة كريستيان سيانس مونيتر (Christian Sceince Moni(tor: «إذا ما هوجمت سوريا مباشرة فإننا سنقدم كل ما نستطيع لحماية حدودنا هناك». واقترح بحث مجمل قضايا الدفاع في منبر عربي آخر. (٨)

التقى ذلك المنبر، مجلس الدفاع التابع للجامعة العربية، في القاهرة في ١٥ ديسمبر (كانون أول) من العام ١٩٦٦، وسرعان ما أصبح مناهضا للأردن. إذ وجد ممثلو عمان أنفسهم يتعرضون للذم وتشويه السمعة لفشلهم في حماية الفلسطينين ولعدم القيام بالتزاماتهم ضمن القيادة العربية الموحدة. إذا ادعى السوريون والمصريون أنه لو سمح للقوات السعودية والعراقية أن تدخل الضفة الغربية لما وقعت حادثة السموع. ولم يقتنع المشتركون في اللقاء بالرد القائل إن إسرائيل سوف تعتبر دخول مثل هذه القوات سببا للحرب - فالعراق والسعودية كلاهما لم يوقعا على اتفاقيات الهدنة الدائمة - وبالتالي بدلاً من أن يمنع دخول قواتهما الحرب، فإنه سوف يشعلها. ووجه الوفد الأردني اتهاماً مضاداً إلى مصر قائلاً: «لِم لَمْ تجدد مصر الهجمات الفدائية انطلاقا من أراضيها؟ ولم لم يخرجوا قوات الطوارئ الدولية وينقلوا جنودهم من اليمن إلى سيناء؟ وأين كان سلاح الجو المصري العتيد عندما كان الإسرائيليون يهاجمون السموع؟ وأين التزام سوريا بالدفاع العربي؟». (٩)

لقد جرحت هذه الأسئلة -الاتهامات في حقيقتها- مشاعر عبد الناصر وضربته على الوتر الحساس، إذ كانت طائرتان مصريتان من طراز ميغ قد ضلتا طريقهما فوق المناطق الإسرائيلية فأسقطهما سلاح الجو الإسرائيلي.

وجاء إسقاط هاتين الطائرتين بعد خطاب نشر على نطاق واسع ألقاه الجنرال محمد صدقي محمود، قائد سلاح الجو المصري، قال فيه: «إننا نملك أقوى سلاح جوي في الشرق الأوسط. قاذفاتنا مزوَّدة بصواريخ ومقاتلاتنا حديثة - قادرة على تدمير مطارات إسرائيل وطائراتها. إننا لا نخشى شيئاً..».

والواقع أن الجيش المصري كله، وليس سلاح الجو وحده، كان في حالة يرثى لها، مستنزف باليمن، وبسبب تقلص نفقات الدفاع بصورة خطيرة، وذلك نتيجة الأزمة الاقتصادية التي أَلَمَّت بالبلاد، وكانت أزمة حادة جداً بحيث اضطر عبد الناصر إلى التخلف عن تسديد قرض أجنبي بقيمة مليار دولار. كما فشلت حملة تحرير مصر من آثار الإقطاع عن طريق نقل ملكية الصناعات المصرية الناشئة إلى العمال، فشلاً ذريعاً.

فالخمسة آلاف مستخدم في معمل نصر للسيارات أصبحوا لا ينتجون بعد تلك الخطوة أكثر من سيارتين في الأسبوع. ولدى تصاعد عدم الرضا العام في مصر، بدأ الدبلوماسيون الغربيون يتنبؤون بزوال النظام في وقت وشيك - بل كانوا يتوقعون ما هو أسوأ. وقال أحد الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين، ر.م.تيش (Tesh. M. R) أن سياسة الجمهورية العربية المتحدة تمهد الطريق إلى الدمار محذراً من الوضع الذي يسعى فيه العسكريون لاستعادة هيبة مصر عن طريق خوض حرب، قائلاً: «إن رائحة الدم وقعقعة المعركة البعيدة ربما تبدأ بسبب بعض المتهورين الراغبين في الحرب - والويل عندئذ للمدنيين». (١٠)

مثل هذه التحذيرات كانت تُحجَبُ تقريباً في الخطاب العسكري المتصاعد في العالم العربي. فرئيس الوزراء الأردني، التل، قال في عمان: «أفضل الموت». على أن أسمح لقوات الأمم المتحدة أن تتمركز في أرض أردنية، أو أن أنخرط في «اتفاق جنتلمان» كما فعل عبد الناصر مع بن غوريون في العام ١٩٥٦. وادعى قائد القيادة العربية الموحدة الجنرال علي علي عامر، بدوره، أن التل انتظر أربع ساعات بعد انسحاب القوات لإسرائيلية من السموع، حتى اتصل به.

ثم اتهمت الصحافة المصرية الملك حسين باختلاس المخططات الدفاعية للقيادة العربية الموحدة، ونشرت بعناوين رئيسه في الصفحة الأولى مقابلة مع أحد المنشقين عن الجيش العربي الأردني، الكابتن رشيد الحمارشه (Rashid alHamarsha) الذي اعترف بأنه العقل المدبر للتفجيرات التي وقعت في سوريا. اتهمت الأردن الحمارشة بأنه جاسوس صهيوني مرتبط براقصة «هز بطن» اسمها أوورورا جليلي (Aurora Galili) أو فيوروورا جيلّي (Furora Jelli)؛ ثم أظهرت الهارب من المخابرات المصرية الملتجئ إليها واسمه رياض حجاج، فكشف مؤامرات ضد حكومتي لبنان والسعودية. وبلغت المهاترات ذروتها في خطاب لعبد الناصر ألقاه في ٢٢ فبراير (شباط من العام ١٩٦٧ تلاعب فيه بكلمة «عاهل» الأردن ولفظها «عاهر» الأردن. (١١)

لقد وصلت العلاقات بين ناصر والحسين إلى «نقطة اللا عودة» كما جاء في مذكرة بريطانية. فاستدعى الملك حسين سفيره من القاهرة، بسبب انزعاجه الشديد من خطاب عبد الناصر، وطرد القنصل السوري من القدس الشرقية. وعندما انعقد مجلس الدفاع العربي فيما بعد في ١٤ مارس، خرج الوفد الأردني كي لا يجلس مع الشقيري «مفشي الأسرار العسكرية وناشر الأكاذيب». وتحول اللقاء إلى مشاجرة عامة اتهم فيها المصريون والسوريون الملك حسين بالتواطؤ مع خطة إسرائيل لتمويل الأردن وشراء الأسلحة الأمريكية. فقرر الأردنيون والسعوديون والتونسيون والمراكشيون مقاطعة دورات المجلس القادمة. (١٢)

استشاط الحسين غضباً، وشعر بالمرارة تعتصره، وبالإهانة تحيق به، وفوق ذلك كله أصيب بالإحباط وخيبة الأمل. إذ انهار التحالف الضمني بين الأردن ومصر الذي أنجز في فترة مؤتمرات القمة، والاتفاق الضمني بينهما القائم على معارضة شن حرب ضد إسرائيل قبل أن يكون العرب مستعدين لها. وكان السوريون، في نظر الملك حسين، مخططين في إغراء مصر والنجاح في جرها إلى فخ حرب حتمية - تنهزم فيها مصر ويسقط عبد الناصر. لكن الحسين احتفظ بأعمق الاشمئزاز من عبد الناصر لنفسه.

وقال ذات يوم لاجتماع في أريحا: «في كل مَرَّة يهاجمنا فيه يسأل الناس لماذا لا نرد عليه؟ الجواب بسيط». إذا كان لدينا أي شعور تجاه هذا الشخص فإنه الشعور بالألم، لأنه كانت لديه، ذات يوم، فرصة فريدة ليخدم أمتنا». (١٣)

(أثانا سيوس في مواجهة مندوم) Athanasius Contra Mundum.

«ذلك الشخص» له مصادر ألمه الخاصة به - الاقتصاد كما رأينا، والسوريون، والأخوان المسلمون. وعلى الرغم من أهمية هذه الإشكالات، كان هناك إحساس بالوهن لأن ثورة الضباط الأحرار قبل ١٥ عاماً، وحلم مصر في أن تخرج من العبودية وترقى في سلم الصعود العالمي، قد تبخرت كلها. تسلم جمال عبد الناصر

(الريّس)، (الزعيم) السلطة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، ويتمتع بشخصية حازمة مفعمة بالنشاط. وسيم، مندفع، يمتلك ذكاء حاداً غير معقول. وكان عبد الناصر قادراً على أسر الجماهير بفصاحته وبمزجه العربية العامية والفصحى بطريقة ساحرة. واستطاع ابن عامل البريد المتجول، الجندي الذي تركت فيه حرب فلسطين ندبة جرح، أن يطيح في أقل من خمس سنين بالملك فاروق والجنرال محمد نجيب، ليصبح أول زعيم مصري المولد يحكم مصر منذ ١٥٠ عاماً. وفي غضون سنتين من تسلمه سدة الحكم؛ ذاعت شهرته الأسطورية في جميع أنحاء الشرق الأوسط بوصفه محرراً لمصر ومدافعاً عن العرب ضد الغرب الجشع، ووصف بأنه صلاح الدين في هذا العصر.

كانت إنجازاته الأولى مذهلة حقاً. وبدت فريدة، إذ أمَّن إجلاء بريطانيا عن قناة السويس، وحصل على سلاح سوفياتي، ثم أمم القنال، وهزم العدوان الثلاثي، وجعل من الوحدة العربية حقيقة. كانت ملايين العرب تحترمه، بل تقدسه، وكان زعماء العالم يتوددون إليه كناطق باسم قومية العالم الثالث، وبطل عدم الانحياز جنبا إلى جنب مع نهرو (Nehro) ونيكروما (Mkrumah). إنه رجل هادئ عرف بالفطنة والملحة، وكان يعيش مع زوجته وأولاده معيشة يغمرها الإيمان، وتتصف بالاقتصاد والتقشف. وكان غير قابل للفساد أبداً في بلد اشتهر بالابتزاز والكسب غير المشروع.

ولكن هذا الصرح قد انهار بعد ذلك بصورة مذهلة أيضاً. فالقطيعة مع سوريا والممالك العربية، وكابوس اليمن، ونفوره من الولايات المتحدة الأمريكية - تتابعت كلها على ستارة مسرح الانحدار الوطني المتواصل. كما أن الناصرية، وهي الحركة التي حملت اسمه، قد ماتت عمليا ضحية تحالف السوريين والسعوديين والأردنيين والفلسطينين.

وبحلول العام ١٩٦٧ كان عبد الناصر مثقلاً، وكامداً - بسبب إصابته بمرض البول السكري المتفاقم، على الأغلب - فأصبح سريع الغضب يشعر بالعظمة. قال عنه أكرم حوراني، الزعيم السوري، «إنه يعرف كيف يبدأ الأمور بإتقان، ولكنه لا يعرف ليش ينهيها». وساد عنصر اللا معقول في قرارات عبد الناصر الآن بعد أن كانت خالية منه ذات يوم.

عَلَّق حسين صبري، أحد الضباط الأحرار، على شبكة الشرطة السرية الهائلة (المخابرات) التي أنشأها عبد الناصر حوله، قائلاً: «كان قانونه في الحكم هو قانون الرجل الذي لا يكون آمناً إلاَّ إذا تصرف من خلال جهاز سري». وقال لويس عوض الناقد الأدبي المصري، معلقاً على ذلك بصورة أكثر أناقة: «القانون في ظل نظام عبد الناصر في إجازة». ولدى انتخابه للمرَّة الثانية بأكثرية ٩٩,٩٩٪، تربع على رأس الاجتماعات الوزارية حيث يتحدث هو وحده، وغالباً ما كان يعنّف الوزراء، فتحول إلى دكتاتور عسكري انتقامي - أو إلى «أثاناسيوس في مواجهة العالم، ينغصه هذا العالم» (١٤) كما وصفه دبلوماسي بريطاني.

لم يبق لعبد الناصر سوى كبريائه التي تعاظمت لسوء حظه، إلى حد كبير. قال لوشياس باتل (Lucius Battle) معلقاً على ذلك: «كان لتلك السمة علاقة بفقدان الاعتبار، مشفوعة بنوع من عقدة مسيحانية. إذ لم يكن يحب أن يكون على خطأ ولا يقبل الاعتراف بالخطأ» (١٥) جرحت كبرياؤه تلك من قبل السعوديين والأمريكيين، الأمر الذي دفع مصر على التورط في اليمن وإلى الثأر من الرئيس جونسون. إضافة إلى تحديات وإهانات أخطر كانت تصدر عن الأردن. ومن الاتهامات اللاذعة، بوجه خاص، التي كانت تبثها الإذاعة الأردنية من عمان هي: خوف عبد الناصر من مواجهة الاسرائيليين، ورفضه الخروج من وراء قوات الطوارئ الدولية.

وهكذا خُزي الزعيم المصري الذي نجح في إخفاء وجود قوات الطوارئ الدولية وعبور السفن الإسرائيلية عبر مضائق تيران عن غالبية شعبه. والكبرياء تتطلب الانتقام والرد؛ ولكن كيف؟

جاء الجواب على الفور من عبد الحكيم عامر، الذي أبرق للرئيس عبد الناصر من الباكستان، حيث كان يقوم بزيارة دولة لها في الرابع من ديسمبر، اقتراحاً بإصدار أمر لقوات الطوارئ الدولية بمغادرة الأراضي المصرية، وتركيز الجيش

المصري في سيناء، وإعادة فرض الحظر على الملاحة الإسرائيلية في مضائق تيران.

إن مثل هذا الإجراء سوف يسحب الريح من أشرعة الحسين، ويحرم إسرائيل من قدرتها على المناورة في الهجوم على سوريا أو الأردن. إذ سيجد الإسرائيليون أنفسهم مضطرين في النهاية إلى توجيه ضربة إلى مصر، وخوض معركة تدوم ثلاثة أيام أو خمسة قبل أن تتدخل الأمم المتحدة، وتفرض وقف إطلاق النار. وكما حصل في العام ١٩٥٦ سوف تدان إسرائيل كمعتدية، وتجبر مرغمة على الانسحاب وتبدو مصر منقذة للعرب.

لم تكن فكرة طرد قوات حفظ السلام بجديدة عند عبد الحكيم عامر. فقد كانت ذكرى حرب العام١٩٥٦ مريرة في نظره لأنها لم تكن نصراً حاسماً كما ادعى، وكانت قوات الطوارئ الدولية دائماً مصدر عار إلى الفيلد مارشال (المشير) عامر، وكانت كابحاً لقوته العسكرية التي صنعها. وكان عامر قد طرح خطة مماثلة في السنة السابقة خلال دورة القوات المصرية في اليمن، ولكن عبد الناصر رفضها حينذاك كما رفضها الآن.

كانت أسباب ذلك الرفض عديدة. لم يكن شعور عبد الناصر بالمهانة من وجود قوات الطوارئ الدولية بأقل من شعور عبد الحكيم عامر، ولا أقل تطلعاً إلى إخراجها. قال الجنرال محمد فوزي، رئيس أركان الجيش المصري: «أوضح لي كل من الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر قبل العام ١٩٦٧ أنهما كانا يريدان اهتبال أي وضع دولي أو إقليمي يسمح لهما بالتصرف مع قوات الطوارئ الدولية» تضمنه تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في ١٨/إبريل (نيسان)/١٩٦٧حديثاً لعبد الناصر مع دبلوماسي مصري رفيع المستوى، أبدى له فيه رغبته في تخليص سيناء من قوات الطوارئ الدولية وإغلاق مضائق تيران. ولكن ذلك يعني عودة مصر إلى حالة الحرب ضد إسرائيل حتى وإن لم تشن إسرائيل حرباً، فإن إخراج قوات الطوارئ وإغلاق مضائق تيران لا يبقي لمصر عذراً في ألا

تحارب إسرائيل. ولكن كان لدى عبد الناصر مسألتان هامتان هما التوقيت والإعداد، لذلك قال عبد الناصر في حديث له مع ممثلي م.ت.ف: «يقول السوريون، أخرج قوات الطوارئ الدولية، ولكن إن طردناهم، «أليس من الأمور الجوهرية أن يكون لدينا خطة؟ إذا اعتدت إسرائيل على سوريا، فهل سأهاجم إسرائيل؟ عندئذ ستكون إسرائيل هي التي حددت زمن المعركة وفرضته علي.. ثم هل من المعقول أن أهاجم إسرائيل في حين يوجد ٥٠,٠٠٠ جندي مصري في اليمن؟». (١٦)

مضت سنتان وبقيت هذه الأسئلة بلا جواب. وبدلاً من أن تخف حدة حرب اليمن، ازدادت شدة، مع عودة الطائرات للإغارة على قواعد سعودية، وتمسحها بالغازات السامة. وقيل: إن الضباط المصريين المستائين كانوا على وشك التمرد. ومع ذلك صرحت القاهرة أن الجيش المصري سيقاتل عشرين سنة أخرى، إذا ما لزم الأمر.

وفي هذه الأثناء كاد التنسيق بين الزعماء العرب في مجال الأمن أن ينهار. وكشفت اجتماعات مجلس الدفاع في يناير وفبراير من العام ١٩٦٧، للمرَّة الثانية، فشل الدول الأعضاء في تنفيذ التزاماتهم إلى القيادة العربية الموحدة، كما كشفت سوء استخدام ميزانيتها القليلة. قال الجنرال يوسف خَوَّاش ممثل الأردن في هيئة أركان القيادة العربية الموحدة: «إننا نجلس حول المائدة ولا نفعل شيئاً، سوى كتابة بعض الدراسات الجيدة». وخلص علي علي عامر في تقرير له صنف في مارس، إلى أنه لا يمكن للوضع أن يُيسّر تطبيق المهام المقررة (للقيادة العربية الموحدة)، أي تقوية الدفاع العربي لتأمين حرية العمل في المستقبل، وتمهيد الطريق إلى تحرير فلسطين» وحذر قائد القيادة العربية الموحدة قائلاً: «إذا ما خضنا الحرب في هذا الوقت فإننا سوف نخسر مزيداً من الأرض، بدلاً من أن نهزم إسرائيل».

فهذان السببان -اليمن، وغياب خيار عسكري سليم ضد إسرائيل- أقنعا عبد الناصر أن التوقيت غير مناسب لطرد قوات الطوارئ الدولية.

أما القضية الفلسطينية فيمكن إبقاؤها بأمان «في الثلاجة» إلى أن يحين الوقت الذي تكون فيه مصر والعالم العربي قادرين على إذابة الثلج (١٧). ومع ذلك كان هناك اعتبار آخر في قرار عبد الناصر، وهو اعتبار داخلي وشخصي إنه يتعلق بمصدر النصيحة ذاتها، ألا وهو عبد الحكيم عامر.

لا يمكن أن تكون الصداقة أكثر حميمية مما هي بين ناصر وعامر. فهما من خلفية متواضعة متماثلة، خدما كضابطين في الجيش في السودان معاً، وخططا معاً ثورة العام ١٩٥٢. سمى ناصر ابنه عبد الحكيم، وزوّج عامر ابنته أمل من حسين أخ عبد الناصر الأصغر. وكان بيتاهما الصيفيان في الإسكندرية متجاورين، وكان ينادي كل منهما الآخر بـ «أخي» أو باسمه المجرّد من الألقاب والكنية: فكان عامر ينادي عبد الناصر بـ «جيمي» (Jimmy)، وناصر ينادي عامر بـ «روبنسون» (Robinson) لأنه يحب السفر كثيراً كان الود بين ناصر وعامر عميقاً جداً بحيث غفر عبد الناصر لعامر أداءه المحزن في أزمة السويس ،حيث أصيب عامر بانهيار عصبي، كما قيل، ومن ثم صفح عنه سوء إدارته للوحدة مع سورية. وغفر له، كذلك، إدمانه على الكحول، وزواجه السري، غير المعروف لدى زوجته، من نجمة، السينما المصرية برلنتي عبد الحميد (Berlinti Abd- al-Hamid). فلم يكن عبد الحكيم عامر الرجل النحيف الداكن البشرة، المعروف بالكسل وقلة الخبرة، مرشحاً محتملاً لتحدي حكم عبد الناصر. ومع ذلك كان عامر ذا طموح جامح، سخيا لمن يدعمونه، قاسيا لا يرحم من يعارضونه.

بدت تلك القسوة أخيراً لعبد الناصر في العام ١٩٦٢ لدى وصول أول تقارير عن فساد عامر في اليمن، ورفضه قبول مزيد من الهيمنة المدنية على الجيش. وعندما حاول عبد الناصر تشكيل مجلس رئاسي ليشرف على الأنشطة العسكرية، هدد الضباط الموالون لعامر بالتمرد. تراجع عبد الناصر، وبدلا من أن يحدّ من سلطة عامر انتهى به الأمر إلى تعزيزها. أصبح عامر الآن النائب الأول لرئيس الجمهورية المسؤول عن القوات المسلحة؛ استخدم عامر هذا المنصب لتحويل الجيش إلى إقطاعة خاصة به، يرفع الضباط على أساس الولاء وليس على أساس الشجاعة

والبراعة محيطا نفسه بعصبة من «أهل الثقة» الإمَّعات، ورفَّع نفسه كذلك إلى رتبة مشير، وهي أعلى رتبة عسكرية في العالم العربي.

ومازالت سلطته تتنامى. وشملت ألقابه بعد خمس سنين لقب وزير العلوم، ورئيس هيئة الطاقة الذرية المصرية، ورئيس مجلس النقل في القاهرة، ورئيس لجنة تصفية الإقطاع، وحتى رئيس الكشافة المصرية واتحادات كرة القدم. وكان قادراً على تعيين نصف أعضاء مجلس الرئاسة، وثلث أعضاء الوزارة، وثلثي السفراء. لم يكن نفوذ عامر محصوراً في الوطن، بل إن البيانات السوفياتية المشتركة في تلك الفترة أكدت أهمية عامر بما لا يقل عن ناصر. قال السفير الأمريكي في القاهرة: «كان المشير يقحم نفسه في كل مجالات الحياة المصرية لدرجة أنه بدا وكأنه وريث عبد الناصر بلا منازع.» وكان عبد الناصر موافقاً على ذلك بالتأكيد.

ولكن عندما وصل الأمر إلى «عامر» لم يستطع الرئيس المصري اتخاذ أي إجراء ضده إما خوفاً، أو افتتانا أو كلاهما. بيد أنه وضع عامر تحت المراقبة الدائمة، ورفض إخراجه من السلطة، قائلاً: «أفضل أن أستقيل». (١٨)

إنّ هذا التناقض في علاقة عبد الناصر بعامر قد ألقى بظلاله على اقتراح عامر بتخليص مصر من قوات الطوارئ الدولية. (UNEF). فإذا ما رفض ناصر هذا الاقتراح لعدم رغبته في أن يعهد لعامر بأمر إخراج الـ UNEF وإعادة سيناء إلى الجيش المصري، فإنه لم يرفضه مباشرة. بل أمر بتشكيل لجنة لفحص مسألة إخراج UNEF بكل ما يمكن أن ينجم عنها من تفرعات. وبُذلت جهود لإطلاع السوفيات على الفكرة، ومعرفة رأي يوثانت Uthant الأمين العام للأمم المتحدة. (١٩)

ظل التصرف تجاه الـUNEF مرهوناً بالمستقبل إذ ليس لدى عبد الناصر خطط فورية تجاه إسرائيل. ولدى بحثه عن مجرم يحمّله مسؤولية المصائب التي تواجهها مصر، وقع اختياره على الولايات المتحدة الأمريكية. وكما ذكر باتل (Battle)، «جمع عبد الناصر كل المواضيع التي حصلت في السنوات القليلة الماضية ضد أمريكا

وربطها في حزمة واحدة» إذ ربط عبد الناصر «أمريكا» بالإمبريالية في خطابه الذي ألقاه في ٢٢ فبراير ما لا يقل عن مئة مرَّة. وأبرز أهمية هذه الرسالة بسلسلة مقالات من ثماني حلقات نشرت في جريدة الأهرام بقلم محررها محمد حسنين هيكل، موضع ثقة عبد الناصر، اتهم فيها الولايات المتحدة الأمريكية بأنها العقل المدبر «لجهاز سري واسع» مصمم لتدمير الأنظمة العربية الثورية بفضل «الحرب الاقتصادية والنفسية وحبك المؤامرات وتدبير الاغتيالات».

رأى باتل (Battel) في ختام رحلته إلى القاهرة، أن وضع ناصر المحلي القائم سيضطره للقيام بعمل درامي فوري في الخارج -على الأغلب في اليمن أو إفريقيا. وافق القائم بالأعمال لدى باتل، ديفيد جي نيس (David G. Nes) على هذا الرأي مشيراً إلى أن عبد الناصر قد وصل إلى درجة من اللا معقولية قريبة من الجنون بسبب الإحباطات والمخاوف الناجمة عن فشله على الصعيد المحلي والخارجي.. «أين ستكون الضربة الثالثة -ليبيا؟ لبنان؟» أما احتمال أن تكون ضربة عبد الناصر الثانية موجهة إلى إسرائيل فلم يخطر ببال الأمريكيين. (٢٠)

بدا وكأن إسرائيل قد أُسقطت من برنامج عبد الناصر. وأثناء استضافته للرئيس العراقي الجديد، عبد الرحمن عارف، قال عبد الناصر معترفاً: «لا نستطيع التعامل مع القضية الفلسطينية» التي لا تحل إلا من خلال «تخطيط مستمر على مراحل عديدة». إن هذه الكلمات التي صدرت عن رجل أقسم ذات يوم «ألا ينسى حقوق الشعب الفلسطيني»، وأنه «سوف يجند مليوني رجل أو ثلاثة ملايين لتحرير فلسطين. لا يمكن أن تكون كلمات قتال ولا يحتاجها أن تكون كذلك ما دام الهدوء يسود الجبهة السورية». (٢١)

أبو الهول السوري

كان الهدوء على الحدود السورية، دائما، نسبيا، ومنذ شهر نوفمبر، والتوقيع على المعاهدة المصرية السورية -ومنذ عملية السمّوع وفشل سوريا ومصر في الرد عليها- ودمشق تواقة إلى التوصل لوقف قتال ضمني. ومنذ ذلك الحين حتى نهاية

العام لم تسجل سوى حوادث قليلة. ثم بدأت المنطقة تغلي ثانية في مطلع يناير من العام ١٩٦٧. إذا أمطرت الدبابات السورية كيبوتز. الماغور (Almagor) بإحدى وثلاثين قذيفة، فجرح اثنان من أعضاء كيبوتز شامير (Kibbutz Shamer) بنيران الرشاشات. واستمرت الصدامات أسبوعاً قبل أن تبلغ ذروتها بموت إسرائيلي وجرح اثنين آخرين بلغم أرضي مضاد للأفراد كان قد غرس في موشاف ديشون (Moshav Dishon) تبنت فتح ذلك الهجوم. وكان اللغم يحمل علامات الجيش السوري. وأعلن راديو دمشق السري في السادس عشر من يناير «أن سوريا قد غيرت استراتيجيتها من الدفاع إلى الهجوم.. ولسوف نتابع القيام بالعمليات إلى أن تزول إسرائيل». (٢٢)

كانت أسباب هذا التصعيد غامضة غموض النظام السوري نفسه. إذ ما زالت هناك الأيديولوجية البعثية التي تضع في أولوياتها إزالة إسرائيل، «ونشر الصديد الذي ينشر سم الكراهية والعداوة» كوسيلة لتوحيد العالم العربي وتخليصه من «الرجعيات» - وهو منهج معاكس لمنهج عبد الناصر الذي يرى أن الوحدة شرط مسبق للحرب، صرحت صحيفة البعث الرسمية اليومية تحت عنوان بارز: «شعبنا البطل يغني أغاني الحرب، توقاً لبدء المعركة النهائية. فليس هناك من سبيل لإزالة الاحتلال سوى سحق قواعد العدو وتدمير قوته». وقال الكولونيل مصطفى طلاس قائد الجبهة الوسطى المبهرج المهذار: «أصبح يوم العمل وشيكا، لأن المحافظين العرب جبناء، ولا تستطيع سوريا الانتظار لأكثر من ذلك» (٢٣) كانت الحرب هي أكثر ما يشغل البعث، ويشكل جزءاً كبيراً من أسباب وجوده.

ومع ذلك يكمن المزيد من الأيديولوجية وراء سياسة الحدود السورية، كان النظام في هذه الفترة، في يناير، منشغلاً بنزاع طويل مع شركة نفط العراق. وإضافة إلى عدم رضا سوريا بما تدفعه العراق لسماحها بتدفق النفط عبر أنبوب يمر في الأراضي السورية إلى البحر، فقد دانت سوريا شركة نفط العراق (IPC) التي تملكها بريطانيا بوصفها عميلة إمبريالية تؤدي خدمات بغيضة لإسرائيل. وأوضح

راديو دمشق قائلاً: «إن اللهب الثوري المنبعث من معركة النفط هو السبب الواضح للتحركات الصهيونية على طول حدودنا». ورددت صحيفة البعث قائلة: «النصر على شركة نفط العراق ليس سوى الخطوة الأولى... المؤدية إلى تحرير الأرض العربية من الإمبريالية والرجعية والصهيونية» (٢٤) وبموجب منطق دمشق الغريب يعد وضع الحدود ومفاوضات النفط وجهان لعملة واحدة، وبالتالي فإن إظهار الشجاعة في إحداهما ينعكس شجاعة على الجانب الآخر ويعززه.

وهناك علاقات سورية مع موسكو ليست أقل إلغازاً من مسألة النفط. استمرت السياسة السوفياتية في العمل على الجذب في اتجاهين، دعم سوريا سياسيا وعسكريا، وفي الوقت نفسه تعمل على كبح ميولها العدوانية. هذا التفرع كان ينعكس تنافراً داخل الكرملين نفسه. ففي حين كان وزير الخارجية السوفياتي أندريه غروميكو (Andre Gromyko) يضغط على المكتب السياسي في اتجاه تجنب المزيد من الصراعات مع الولايات المتحدة، خصوصاً في الشرق الأوسط، كان الأسطول الروسي يحتشد في شرق البحر المتوسط. وكان الدبلوماسيون السوفيات في دمشق يحثون النظام على تخفيف اللهجة العدائية، في حين كان الخبراء الروس في الميدان يحثون الجيش السوري على النشاط في العمليات. وعلى الرغم من طموح السوفيات لتحقيق حلمهم القديم في عزل تركيا والسيطرة على الممرات المائية في الشرق، وتحييد التهديد الذي يتمثل في الأسطول السادس الأمريكي، فإنهم في الوقت نفسه كانوا يخشون الحرب، ويخشون أن يفجرها الراديكاليون العرب. (٢٥)

انعكست هذه الدوافع المتناقضة في التحذير السوفياتي للجيش الإسرائيلي الذي كان يحشد على الحدود الشمالية -وصدرت مثل هذه التحذيرات في أكتوبر ونوفمبر من العام ١٩٦٦ ، ومرَّة أخرى في يناير من العام ١٩٦٧ التي رفضتها إسرائيل- وفي دعم القصف السوري للمستوطنات.

وكان انفصام الشخصية السوفياتية واضحاً أثناء زيارة دولة قام بها الرجل السوري القوي صلاح جديد في ٢٠ يناير، ومع أن القادة السوفيات قد شكموا صلاح جديد، كما هو واضح، إلا إنه عاد يحمل وعوداً بمساعدات عسكرية على نطاق واسع، ودعماً لموقفه ضد «الصهيونية العدوانية» وكان السوفيات، في نظر المراقبين الإسرائيلين والأمريكيين يسعون لمعالجة الأمور في الشرق الأوسط على نار هادئة، بهدف «الإبقاء على التوترات من غير أن تنفجر» والإبقاء على متاعب صغيرة وليست كبيرة». (٢٦)

كان لدى القادة السوريين سبب شخصي آخر لرفع وتيرة التوتر مع إسرائيل غير التشجيع السوفياتي والتحريض الناجم عن نضالهم ضد شركة نفط العراق، فبالإضافة إلى كون مجموعة الحكم محتقرة من الشعب بصورة عامة، فقد كانت هناك انقسامات داخلية -الضباط ضد «الدكاترة المدنيين» كالرئيس الأتاسي، ووزير الخارجية ماخوس (Makhous) وفيما بين الضباط أنفسهم. كان حافظ الأسد الذي يدعمه سلاح الجو يقف ضد الجيش والرئيس جديد، في حين كان رئيس المخابرات، عبد الكريم الجندي، يعارض الجنرالين معاً. في ١٧ يناير حاول ثلاثة من رجال الجندي اغتيال الأسد، وزير الدفاع حينذاك، بإطلاق النار على سيارته وهو في طريقه إلى طبيبه. فإذا ما كان ذلك الخبر صحيحاً فإن الكمين لم يكن حدثاً غريباً. فتحطم السأم الكئيب الذي كان يلف دمشق الاشتراكية الراديكالية بالانفجارات وفرقعة البنادق، وأحاط الجنود بالوزارات، واعتقل ضباط ووزراء، وصدرت أحكام بالموت لسلسة من الجرائم، بدءاً «من نشر التعصب الطائفي» انتهاء بـ «إعاقة النظام الاشتراكي». (٢٧)

عمّقت مثل هه الصراعات كثيراً شعور النظام بعدم الأمان، وللتغلب على هذه الحالة، كانت هناك حاجة لدفع جمال عبد الناصر إلى مواجهة إسرائيل - حسب عبارة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، وفي لقاء سري مع رجل أعمال سوري اسمه فريد عودة (Farid Awda) له صلات وثيقة مع بريطانيا،

حاول الأسد الحصول على المال والمدافع «لتحويل الأنظار إلى جبهة إسرائيل الجنوبية» فهذا سيتيح له الإحاطة بصلاح جديد، ونور الدين الأتاسي، وتجنب وقوع انقلاب سني تدعمه مصر في سورية، واعداً بأن إشكالية الـ IPC سوف تحل بعد ذلك على الفور. (٢٨)

كان لكل هذه العوامل الخارجية والداخلية أثر على الحدود حيث كان العنف يتصاعد باستمرار خلال الشهور الأولى من العام ١٩٦٧. وخوفاً من أن تنشب حرب دعا يوتانت (Uthant) الفريقين إلى حل خلافاتهما في إطار لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية المشتركة. ولم تستطع لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية المشتركة (ISMAC) العمل إلا من حين إلى حين، رغم أنها تلقت في غضون بضع سنين حوالي٦٦,٠٠ شكوى وكلها تتعلق بالمناطق المنزوعة السلاح. وكان الذي يعيق عمل اللجنة هو مطالبة سورية بالسيطرة على المناطق المنزوعة السلاح ورفض إسرائيل لذلك الطلب، والعداوة المكشوفة بين الوفدين.

كانت العداوة واضحة في واقع الأمر منذ لحظة التئام لجنة الهدنة الإسرائيلية السورية المشتركة في ٢٥ يناير. إذ اتهم الإسرائيليون السوريين بأنهم يلعبون لعبة مزدوجة: السعي لإعادة المزارعين العرب سلمياً إلى المناطق المنزوعة السلاح، والاستمرار في الحرب الشعبية ضد إسرائيل في الوقت نفسه. وصف موشي ساسون (Moshe Sasson)، المندوب الإسرائيلي في اللجنة الاجتماع بأنه «استثنائي» «وغير رسمي» مقللا بذلك من أهمية الدور السوري في تلك المناطق. ولم يكن السوريون بأقل ارتياباً. فقالوا إن غايتهم هي «إنهاء العدوان الصّهيوني على الأرض العربية». وأنهم لا يضمنون «أمن دولة العصابات داخل فلسطين». توسعت الهوّة بين الطرفين عندما اقترح ساسون تعهداً ثنائيا «بالتمسك بالتزاماتهما اللاعدوانية وبالامتناع عن القيام بأي عمل عدواني ضد بعضهما البعض». رفض الكابتن عبد الله ممثل سوريا الفكرة وأصر على تبني إجراءات عملية لحل النزاع حول المناطق المنزوعة السلاح. ومع ذلك عندما جاء دور عبد الله لإدارة مثل هذه الاقتراحات

انطلق في خطبة مطولة قرَّع فيها إسرائيل وسياساتها. ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان ساسون وعبد الله الاتفاق على أي برنامج، وبالتالي كان التقدم نحو الحل أقل بكثير من ذي قبل. (٢٤)

وفي هذه الأثناء تضاعفت حوادث الحدود. وفي الثالث من مارس أصيب أحد أعضاء كيبوتز شامير بجروح خطيرة عندما اصطدم جرار بلغم سوري. ووجدت ألغام مماثلة بعد ثلاثة أسابيع خارج القريتين الإسرائيلتين كفار شولد (Kfar Szold) وزرعيت (Zarit). فكانت الحدود مع الأردن أكثر اضطراباً من الحدود مع سوريا. إذ شهدت تلك الحدود في الشهور الأولى من العام ١٩٦٧ حوالي ٢٧٠ حادثة أي بزيادة قدرها ١٠٠٪ باعتراف إسرائيل. وفي ١٢ مارس مثلاً أوقف قطار إسرائيلي وهو في طريقه من كريات غات (Kiryat Gat) إلى كيبوتزلاهاف (Kibbutz Lahav) بانفجار في سكته؛ ووجدت بالقرب من ذلك قصاصات ورق كتب عليها «الموت للغزاة الصهاينة والنصر للفلسطينين الأبطال». وألقي القبض على أربع مخربين فلسطينيين في اليوم التالي مقابل مدينة قلقيلة الواقعة في الضفة الغربية، وكانوا يحملون عبوات ناسفة، وقتل اثنان آخران في ٢٦ مارس وهما يحاولان إزالة مضخة ماء إلى الشرق من أراد (Arad).أصدرت فتح سلسلة من أربعة وثلاثين بيانا تصف أعمالها بتفصيل كبير وتمتدح شجاعة شهدائها. (٣٠)

امتدحت سوريا هذه الأعمال دون أن تتحمل مسؤوليتها. إذ كرر النظام القول في ٨/إبريل (نيسان): «إن هدفنا المعروف هو تحرير فلسطين وتصفية الوجود الصهيوني هناك. وإن جيشنا وشعبنا سوف يدعم كل مقاتل عربي يعمل على استرداد فلسطين». (٣١)

جعل هذا الإطراء بالإضافة إلى مقاومة سوريا لوساطة الأمم المتحدة الكثيرين من المراقبين الغربيين يستخلصون أن سوريا كانت ملتزمة بالحرب أكثر من أي وقت مضى. وهكذا ذكرت السفارة البريطانية في دمشق في تقرير لها لدى ملاحظتها التهديد في مواجهة إسرائيل «ليس دفاعيا» بل «بضربة عدوانية

كبيرة داخل فلسطين المحتلة، فكل شيء يشير إلى أن مزاج الحكومة السورية الحالية والقوات السورية المسلحة يدل على أن هذا التهديد سوف ينفذ مهما يكلف الثمن. «وكشف سفير الولايات المتحدة إلى دمشق هيو أتش سيمتي (Hugh H.Symthe) نظام «الخوف والإحباط، الستاليني» السوري، وحذّر من أن الخوف من المؤامرات والعدوان بالإضافة إلى الاستفزازات المستمرة لإسرائيل ربما تؤدي إلى مغامرة عسكرية تنتهي بالهزيمة».

أصبحت رعاية سوريا لهجمات الفدائيين علنية لدرجة أن المسؤولين الأمريكيين كَفُّوا عن معارضة قيام إسرائيل بالرد الانتقامي. قال مسؤول رفيع المستوى في وزارة الدفاع الأمريكية، تاونسند هوبس (Townsend Hoopes) أثناء زيارته إلى وزارة الخارجية الاسرئيلية في مارس: «السوريون أبناء كلبة، لماذا لا تضربونهم على الرأس عندما يكون هذا هو العمل الطبيعي الذي ينبغي القيام به؟» وقال يوجين روستو (Eugen rostow) ببلاغة أكثر لإفرايم «إبي» إفرون (Evron "Eppy" Ephraim) الوزير في السفارة الإسرائيلية في واشنطن: «الهجوم المنطلق من داخل بلد ما هو إلا هجوم من قبل ذلك البلد». (٣٢)

كانت إسرائيل في الحقيقة، تعد العدة لعملية انتقامية ضد سوريا. وأخبر إفرون (Evron) البيت الأبيض في ١٦ يناير شفهياً بأن «استمرار السياسة العدوانية السورية سيضطر إسرائيل إلى القيام بعمل دفاعاً عن النفس وممارسة لحقها الدولي وواجبها القومي». بيد أن المشكلة ظلت أعقد من ذلك بكثير، وذلك بسبب خطر تدخل الاتحاد السوفياتي كما كان إشكول يرى بحق.

وبعد ذلك قام الفدائيون الفلسطينيون بنسف مضخة الماء لكيبوتز ميسغاف أم Kibbutz Misgav Am على الحدود اللبنانية في الأول من إبريل. فكانت هذه في نظر إشكول المزارع سابقاً ومهندس الري، هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فقال في لقاء خاص بينه وبين رابين: «أعتقد أن علينا معاقبة السوريين؛ ولكني لا أريد حربا ولا أريد القتال على مرتفعات الجولان، فوافق رابين الذي

وصفه ليور (Lior) بأنه «مصاب بشاذر سوري» وكراهية متأصلة لدمشق. وفي الاستفزاز السوري التالي سترسل إسرائيل جرارات مدرعة إلى عمق المناطق المنزوعة السلاح بانتظار إطلاق النار عليها من قبل السوريين عندئذ ترد إسرائيل الضربة (٣٣).

ثلاثون ثانية فوق دمشق

لم يتأخر الاستفزاز. إذ نفذ الفدائيون ضربتين في ١٣ مارس: زرعوا شحنتين ناسفتين تحت مضخة ري، وخطوط السكة الحديدية على طول الحدود الأردنية. وكما كان مخططاً، تتقدم الجرارات الإسرائيلية عبر المنطقة المنزوعة السلاح الجنوبية المجاورة إلى النّقب (Ein Gev) وكيبوتز هاعون (Ha'on) وكما هو متوقع تطلق عليها البنادق الرشاشة والمضادة للدرع من موقع التوافيق فوقهم على هضبة الجولان. ردت قوات الدفاع الإسرائيلي على النار بالمثل. لم يستغرق تبادل إطلاق النار زمناً طويلاً. وحدث صدام مماثل في الساعة التاسعة صباح السابع من إبريل عندما دخل جراران منطقة منزوعة السلاح قرب تل كاتزير (Tel Katzir) عند الطرف الجنوبي لبحر الجيل (بحيرة طبريا). حياهم السوريون هذه المرة بمدافع عيار ٣٧ مم وليس بأسلحة خفيفة. أصيب الجراران على الفور. قصفت الدبابات الإسرائيلية مرابط المدفعية السورية، فقصفت مدفعية الهاون السورية من عيار ٨١ مم وعيار ١٢٠ مم المستوطنات الإسرائيلية.

سرعان ما تحولت المناوشات إلى حرب صغيرة. إذ لعلعت أصوات البنادق الرشاشة، وهدر دوي المدافع في الجولان والأراضي المنبسطة تحتها. وما إن حلت الساعة ٧,٣٠ بعد الظهر، حتى كانت ٢٤٧ قذيفة مدفع قد سقطت على كيبوتز غادوت (Gadot) فاشتعلت فيها عدة مبان، حسبما قال مراقبو الأمم المتحدة.

سعت الأمم المتحدة إلى ترتيب وقف إطلاق النار، فوافقت سوريا على ذلك شريطة أن تتوقف إسرائيل عن كل الأعمال في المناطق المنزوعة السلاح. رفض إشكول في القدس الذي كان على اتصال دائم برابين في موقعه القتالي المتقدم، هذه الشروط - وأمر بإرسال المزيد من الجرارات ولكنه توقف عند اقتراح رئيس الأركان بضرورة تفعيل سلاح الجو الإسرائيلي لتحييد المدفعية السورية البعيدة المدى. بعد ساعة اشتد القصف السوري. وأخيراً لانَ إشكول، وحلَّقت قاذفات فاتور (Vatour) الإسرائيلية تغطيها طائرات الميراج (Mirage) وشرعت بقصف القرى والبلوكوزات السورية. فدمر في قرية واحدة هي سقوفيا، أربعين منزلاً وقتل أربعة عشر مدنيا. ولم تكد الطائرات الإسرائيلية تبدأ هجماتها حتى اشتبكت مع طائرات ميغ MIG السورية.

لم يكن أداء سلاح الجو السوري ناجحًا ضد سلاح الجو الإسرائيلي أبداً، ولم تكن هذه المرة استثناء. إذ سقطت طائرتا ميغ فوق القنيطرة، أكبر مدن الجولان، وعادت بقية الطائرات إلى دمشق.

وفي معركة عنيفة ضخمة اشتركت فيها حوالي ١٣٠ طائرة، دُمرت أربع طائرات ميغ سورية أخرى. وفي غضون ثلاثين ثانية فقط كانت إسرائيل قد حققت تفوقاً فوق الأجواء السورية. وقع النظام في حيرة من أمره حول تفسير ورطتهم «أيها المواطنون: انتبهوا، إن طائرات العدو تحلق في أجوائنا، وطائراتنا مشتبكة معها».

وادعت السلطات السورية فيما بعد قائلة: «لقد أسقط نسورنا الأبطال خمس طائرات إسرائيلية». بيد أنه لم يكن بالإمكان إخفاء الحقيقة المرّة، إذ شهدت العاصمة كلها الصدام. وانخرطت طائرات الميراج الإسرئيلية في تحليق انتصار حول دمشق، وتعالت صيحات الابتهاج في مكتب رابين. وقال رئيس الأركان: «استعادت إسرائيل زمام المبادرة.» فأهين السوريون، وظل المصريون بلا حراك.

كان رابين مخطئاً: لقد أكدت حوادث السابع من إبريل عجز الحلف الدفاعي المصري - السوري، كما أثبتت غارة السّموع من قبل. فقد شكى رئيس هيئة القيادة العربية الموحدة، علي علي عامر، في حديث خاص مع الشقيري قائلاً: «كم مَرَّة رجونا إخوتنا السوريين ألاَّ يستفزوا إسرائيل؟ فهم يعلمون أننا لم نستكمل استعداداتنا العسكرية، بعد.. ويعلمون أنه يجب أن نختار نحن زمان ومكان المعركة.. لقد توسَّلنا إليهم المرَّة تلوا الأخرى، ومع ذلك ظلوا يقصفون المستوطنات الإسرائيلية، ويرسلون خلايا فتح ليطلقوا النار على وسائل المواصلات أو ينسفوا الطرقات وكل ذلك يضر بجهودنا العسكرية». ادعى عبد الناصر أن عدوان إسرائيل كان محاولة لتحويل أنظاره عن اليمن، فكان هذا الادعاء ضعيفاً. وأردف موضحاً أن الجولان تقع خارج مدى مصر. (٣٤)

وفي تحرك لإنقاذ ماء الوجه، أرسل عبد الناصر رئيس وزرائه صدقي سليمان، وقائد قواته الجوية الجنرال صدقي محمود إلى دمشق.

انخرط أعلى اثنين رتبة في مصر، أثناء زيارتهما الأولى منذ انفصال الجمهورية العربية المتحدة قبل ست سنوات، في كلام بليغ أدانوا فيه بعبع الصهيونية والإمبريالية الأمريكية، والرجعية العربية. وحاول المصريون جاهدين من وراء الكواليس إقناع مضيفيهم السوريين أن يكفوا عن دعم فتح. محذرين أنه إذا ما أصرت فتح على الاستمرار بعملياتها وعجّلت نشوب الحرب، فسوف تقف سوريا وحدها.

لم يلتزم السوريون، على أية حال، ورفضوا طلب زائريهم بأن يضعوا طائرات مصرية نفاثة قرب دمشق. وبدلاً من ذلك نجحوا في أن ينتزعوا من المصريين وعداً بمساعدتهم إذا ما وقعت الحرب.

وبموجب الخطة التي أعطيت اسما رمزياً هو «رشيد»، تقوم الدولتان بهجوم متزامن على إسرائيل، سوريا تضرب الشمال ومصر تضرب الجنوب والوسط. ثم

تتقدم القوات السورية عبر الجليل إلى حيفا. وهنا، في معرض الأنشطة الأرضية، رسم المصريون خطأً. إذ قال صدقي محمود لعبد الناصر لدى عودته: «كل ما قلته للسوريين هو أنه في حال قيام إسرائيل بحشد قواتها على حدودهم، فإني سأرفع جاهزية الطيران ومستوى نشاطه في سيناء وجنوب إسرائيل لتقييد حرية الجزء الأكبر من سلاح الجو الإسرائيلي.. لم نتحدث أبداً عن تحريك قوات مصرية إلى داخل سيناء». (٣٥)

كان تأثير القتال في السابع من نيسان مماثلاً لتأثير غارة السموع على الصراع العربي - العربي إذ سارع الأردن لاستغلال الخزي الذي أحاق بعبد الناصر وادعى أن الطيران الإسرائيلي لم يهاجم سوريا فحسب، بل حلق على ارتفاعات منخفضة فوق القواعد الجوية المصرية في سيناء، ومع ذلك ظل المصريون ناكصين. وقال راديو عمان موبّخا: «إن عدونا.. يعرف لسوء الحظ.. كيف كان عبد الناصر جاداً عندما قال في خطابه الأخير إن الجمهورية العربية المتحدة سوف تشترك في المعركة في اللحظة التي تتعرض فيها سورية للهجوم».

وكل العرب يعرفون أن العدوان الإسرائيلي الأخير على الأخت سوريا قد استمر ساعات عديدة. وقعت ثلاث طائرات سورية من التي أسقطت في الأراضي الأردنية، وتبين أنها كانت مزوّدة بصواريخ خشبية، لأن الأسد كان يخشى تزويدها بصواريخ حقيقية. «ورد عليهم المصريون بلهجة لا تقل قدحاً وذمّاً عن لهجة الإذاعة الأردنية، متهمين الحسين بالتواطؤ مع إسرائيل في ذلك الهجوم. قال رئيس الوزراء المصري، سليمان: «لقد أصبحت الأردن حصنا للإمبريالية، ومعسكر تدريب للعصابات المرتزقة، وموقعاً متقدماً رجعياً لحماية إسرائيل». قال عبد الناصر في خطبة له: «كان الملك كجده متحالفاً مع الصهيونية ولدا عميلين وتربّيا على الخيانة». (٣٦)

كان الحسين أكثر تلطخا بالدم بسبب هذه المشادة الكلامية العنيفة. لأن موقعه أكثر عرضة للخطر من موقع عبد الناصر وعلى إثر إبعاد الأردن عن مصر وسورية

والعراق، وبسبب عدم حمايتها من السعودية والدول العربية المحافظة الأخرى، كانت الأردن على وشك الخروج من الجامعة العربية حيث اتهم الشقيري الحسين بثلاث وثلاين تهمة خيانة. لا يوجد أي حليف عربي يحمي الأردن من إسرائيل. التي، كما أثبتت غارة السمّوع، ربما تحتل الضفة الغربية بدلاً من مهاجمة سورية مباشرة. لدى إدراك الحسين أنه حشر في زاوية، قاتل من أجل الخروج من العزلة التي أخذت تزداد عمقاً. فأقال رئيس وزرائه وصفي التل المناهض بعنف للناصرية، وأمر بوقف الدعاية المعادية لمصر. (٣٧)

ثم قام بتحرك استثنائي في ٢٨ إبريل إذ دعى وزير الخارجية المصرية محمود رياض الذي كانت تربطهما معرفة قديمة إلى القصر الملكي. أخذ عبد الناصر على حين غرة بهذا التغيير المفاجئ، فلم يجد بُدّاً من قبول الدعوة؛ فطار رياض إلى الأردن.

كانت رسالة الملك بسيطة؛ كانت سورية تنصب فخاً بتسخين الحدود لدرجة تدفع فيها مصر إلى التدخل. وأن حرباً كانت قادمة يسقط فيها عبد الناصر وتُدَمَّر الأردن. وكان جواب رياض مختصراً كذلك: إذن على الأردن أن تقبل نشر قوات سعودية وعراقية على أراضيها وفقا لخطة القيادة العربية المشتركة. ولكن الحسين قال لا. ليس قبل أن يخلص عبد الناصر مصر من قوات الطوارئ الدولية، ويعيد جيشه إلى سيناء. وانتهى الاجتماع، إذن، دون تغيير في موقف أي من الطرفين. عاد راديو عمان بعد أربعة أيام إلى نقد عبد الناصر نقداً لاذعا وشجبه بعنف ووصف بأنه «القائد العربي الوحيد.. الذي يعيش بسلام وهدوء مع إسرائيل. لم يطلق أي عيار ناري من أراضيه تجاه إسرائيل.. ونأمل أن يكتفي بذلك.. ياللعار.. لم تكن القرى اليمنية بالتأكيد، خارج المدى، عندما قصفت بالغاز السام». (٣٨)

استمرت العلاقات بين الحكام العرب بالتدهور، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوضع على حدود إسرائيل. وبدلاً من أن تؤدي أحداث السابع من إبريل إلى تخفيف حدة

التوتر، فقد أسفرت عن مزيد من التصعيد. فقد نفذت فتح خلال الشهر التالي ما لا يقل عن أربع عشرة عملية. إذ زرعت الألغام والعبوات الناسفة ليس فقط على الجانب الإسرائيلي المحاذي للحدود السورية والأردنية، بل عبر الحدود اللبنانية كذلك.

وبلغت الهجمات من لبنان ذروتها في الخامس من مايو (آيار) عندما أطلق الفلسطينيون وابلاً من قذائف الهاون من المناطق اللبنانية على كيبوتز المنارة (Kibbutz Manara) وإسرائيل من جهتها تابعت حرث الأراضي المنزوعة السلاح مستفزة بذلك سوريا التي كانت تقصف الحراثين. ومثل هذه الصّلية من المدفعية أطلقت في الحادي عشر من إبريل جعلت مئتي سائح أمريكي يهرعون متدافعين إلى ملاجئ إحدى الكيبوتزات تحت مرتفعات الجولان. ولكن النار السورية لم تكن دائماً رداً على تحركات إسرائيلية.

فقد تعرض مزارعون في كيبوتز جونين (Kibbutz Gonen) في وادي الحولة للنار في الثاني عشر من إبريل بينما كانوا يصلحون سياجاً وأصيب أحدهم في رأسه. (٣٩)

أصبح حساب الهجمات السورية سواء بصورة مباشرة أو من خلال مجموعات فدائية فلسطينية غامراً جداً بالنسبة للإسرائيليين. وأخذ الرأي العام، وخصوصاً في المناطق الحدودية، يطالب بالانتقام لإهراق الدماء هذا، ليس من الأردن، بل من الفاعل الحقيقي، سوريا. وكان البريطانيون والأمريكيون يدفعون في الاتجاه نفسه سواء كان ذلك خوفاً من عرش الحسين أو استياء من سورية. وكان الدبلوماسيون الإسرائيليون في الخارج يهيئون الأجواء للقيام بالانتقام. فقد قال السفير الإسرائيلي إلى واشنطن أفراهام (أبي) هارمان (Avraham (Abe) Harman) إلى باتل (Battle) الذي أصبح في ذلك الوقت مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى: «بالتأكيد لا يساور السوريين أي وهم بأنهم محصنون ضد الهجمات الإسرائيلية إذا ما استمرت الحوادث الإرهابية». حتى في الأحاديث العامة، كشكوى إيبان (Eban) إلى مجلس الأمن، كان يجري التأكيد على شرعية الانتقام، حيث قال:

«إن افتراض السوريين بأنه لن يكون هناك رد على الاستفزاز، افتراض مثلوم أساساً فما من أحد ذي ضمير عالمي سليم إلا وسوف يتعاطف مع عجز إسرائيل عن ترويض نفسها على إرسال الإرهابيين من سوريا». (٤٠)

كان لا بد من قرار مهما كان شاقاً ومرهقاً. وهناك اثنان يتحملان وطأته العظمى، مختلفان عمراً وخلفية، ومع ذلك متكاملان في الشخصية، مثل العلاقة بينهما كمثل العلاقة المتناقضة بين ناصر وعامر وكمثل الاختلاف بين آلياتهما السياسية؛ هما رئيس الوزراء الإسرائيلي ورئيس هيئة الأركان اللذان يشكلان فريقاً نشيطاً متناغماً بصورة سلسلة.

ثنائي مستحيل

ولد قرب كييف (Kiev) لأسرة اسمها الأصلي شكولنيك (Shkolnik) في العام ١٨٩٥، وعندما شاعت البرامج القيصرية، كان إشكول (Eskhol) قد شبَّ في بيئة من العنف والتعصب الديني، والصهيونية. انتقل إلى فلسطين في سن التاسعة عشر إلى أول كيبوتز اسمها ديغانيا (Degania) قرب بحر الجليل (بحيرة طبريا). فأثبت هناك أنه عامل قوي نجا من نوبات ملاريا وهجمات البدو الرُّحل. ولكن بعد أن أحب الأرض واعتبر نفسه دائماً أنه حرَّاثها، اكتشف إشكول أن تفوقه يكمن في السياسة؛ أولاً كممثل لحركة الكيبوتزات، ومن ثم كممثل لاتحاد العمال الرئيسي. وخلافاً لابن غوريون (Ben Gurion) الخيالي الحالم، كان إشكول براغماتيا، واقعيا.

إذ أسفرت سنوات خدمته في الحقل العام عن إنجازات راسخة خالدة، من بينها بناء البنية التحتية للبلاد، وتحرير العرب الإسرائيليين من الإدارة العسكرية التي فرضت عليهم في العام ١٩٤٨. ومن أكثر مآثره فخراً، تأسيس مصلحة المياه القومية «ميكوروث، Mekorot (مصادر)».إذ كان حلم إشكول أن يقطع البلاد طولاً وعرضاً بأنابيب الري «كالشرايين في جسم الإنسان» وأن يرى كل بوصة من الأرض مفلوحة.

كان إشكول، كعبد الناصر، بسيط الأذواق. فكانت زوجته الثالثة مريم (Miriam) هي مصدر توهجه (طلق الأولى، أما الثانية فماتت) لما كانت تتمتع به من شباب وجاذبية، ولكن في حين كان عبد الناصر يتمتع بجاذبية شعبية قوية، كان إشكول خالياً منها كليا.

كان يبدو بوجهه الباهت الخالي من الملامح، وبنظارتيه البسيطتين وأدائه الرتيب، كبيروقراطي كلاسي - وشخصية من شخصيات قلعة كافكا (Cafka) ومع ذلك كان ذلك المظهر الخارجي الرمادي الباهت يخفي وراءه شخصية دافئة متحمسة، ومولعة بالحكم والأقوال المأثورة الهزلية. قال ذات مرَّة: «أتريدون أن تكوّنوا ثروة صغيرة في إسرائيل؟ أحضروا ثروة كبيرة». وكان متحمساً للغة اليديشية (Yiddish).

يذكره عيزر وايزمن (Ezer Weisman) بأنه «الرجل المحبوب.. الهادئ المستهتر.. المنفتح.. المتحدث البارع.» حتى منافسه السياسي مثل شمعون بيريز (Shimon Peres) يمتدحه قائلاً: «إنه حازم ولكن ليس عنيداً، مرن ولكنه غير مستسلم.. يعلم بأن الحياة دون توفيق مستحيلة» «كان مشهوراً ببراعته في التملص من التزاماته». فمن أقواله المشهورة: «نعم لقد وعدت بالتأكيد، ولكن هل وعدت أن ألتزم بوعدي؟» بيد أن هذه المراوغة كانت تظهره أحياناً بأنه غير حازم. ومن فكاهاته الشائعة أن أجاب على سؤال نادلة فيما إذا كان يريد قهوة أو شاياً، بقوله: «نصف من كل نوع».

لم تكن سمعة إشكول أضعف مما هي في الشؤون العسكرية، وذلك عيب مُقعدٌ في بلد تتمركز فيها سلطتا رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع في يد شخص واحد. كان ذلك الرجل هو بن غوريون، الذي كان يعزف من عرزاله في كيبوتز سدى بوكر (Sde Baker) الصحراوي على وتر عجز خَلَفِه في ميدان الدفاع، وخصوصاً إهماله للتحالف الفرنسي الإسرائيلي، وخضوعه للقيود الأمريكية المفروضة على ديمونة. «بيد أن مثل هذه الاتهامات كانت ظالمة جداً. إذ كان إشكول عنصراً فعالاً في بناء قوات الدفاع الإسرائيلية وتحويلها إلى قوة حديثة تعتمد على القوة المدرعة والطيران. وبوصفه رئيساً للوزارة، لم يحجم أبداً عن الموافقة على القيام بغارات

انتقامية -رغم إنها كانت قليلة في نظر بعض ذوي الذهنية التهديئية. إن ما كان يفتقر إليه إشكول هو الخبرة القتالية لأنه لم يخدم في الجيش سوى فترة وجيزة مع البريطانيين في الحرب العالمية الأولى. لقد لدغ بشدة وعمق بنقد بن غوريون -قالت مريم (Miriam) مثل ذلك كمثل أب يلقي بابنه خارج جنة عدن». (٤١)

ظلت سمة الضعف العسكري ملازمة إشكول من خلال اتهامه بأنه إما متسرع جداً أو متردد جداً في اتخاذ القرارات العسكرية. ولما كان تواقاً لتغيير هذه الصورة كان لا يضيع فرصة لارتداء قبعته العسكرية إلا اهتبلها، أو لزيارة الجنود في الميدان إلا اغتنمها، أو اللقاء برئيس أركانه وراء الأبواب المغلقة للتشاور معه إلا استغلّها.

وعندما يأتي الأمر إلى القتال نجد إسحق رابين أغنى خبرة. فقد شهد بعض أشد معارك حرب التحرير، وقاد نخبة من الجنود في المعارك حول القدس وداخلها. وخلافاً لزملائه الضباط الكيبوتزيين والمزارعين نشأ رابين في تل أبيب، ابنا لنشطاء من العمال الصهيونيين الذين كانوا يقضون معظم وقتهم خارج البيت. إنه من مواليد إسرائيل، معسول اللسان، مباشر، وخجول جداً. كان وإشكول صورتي مرآة متطابقتين - الأول جذاب ولكنه هادئ، والثاني رقيق الجسم لكنه حيوي نشيط. ولهذا السبب، وربما لأن كلا منهما بحاجة إلى الآخر كان الاثنان على وفاق تام: «ثرثاران، بسيطان للغاية ومرحان»، يصف رابين في مذكراته رئيس الوزارة قائلاً: «إداري لامع، براغماتي، وماهر جداً في تمثل أدق التفاصيل». طلب إشكول، مجاملاً، من رئيس الأركان أن يبقى في منصبه لفترة ثلاث سنوات أخرى عندما تنتهي ولايته الأولى. وانكب الاثنان على تنفيذ برنامج تسليح واسع النطاق يعطي الأولوية لسلاح الجو والمدرعات، ويركز استراتيجية دفاعية رادعة. (٤٢)

وفيما خلا بعض الاحتكاكات البسيطة التي كانت تقع بين رابين وإشكول من حين إلى حين -كان رابين مألوفاً لذوق إشكول وكان إشكول متطفلاً في الشؤون العسكرية- ظلت العلاقة بين رئيس الوزارة ورئيس الأركان رائعة خلال الشهور الأولى من العام ١٩٦٧. ولكن بعد ذلك لم تدخل علاقتهما اختباراً في محنة أبداً.

ففي مطلع مايو (أيار) تصاعدت الهجمات العربية على الحدود الشمالية، وخول مجلس الوزراء الإسرائيلي الجيش أن يشن حملة انتقامية محدودة ضد سوريا. كرر رابين طلبه بأن تكون الحملة واسعة حتى تفقد النظام البعثي ثقة الجماهير فيه أو تسقطه. ولكن إشكول عارض للمرَّة الثانية، مثل هذا الهجموم خشية ردة فعل السوفيات. لأن الكرملين كان قد أدان ثانية إسرائيل بتآمرها على الحكومة السورية بالتواطؤ مع شركات النفط الغربية.

وقال نائب وزير الخارجية السوفياتي فيكتور سيميونوف (Viktor Semyonov) موبخاً السفير الإسرائيلي كاتز: (Katz) «تشكل إسرائيل تهديداً خطيراً للسلام، كما أنها دمية تلعب بها عناصر أجنبية، وإذا ما حلت كارثة في الشرق الأوسط، فإن إسرائيل تتحمل مسؤوليتها». (٤٣)

ولدى رفض نصيحة رابين لجأ إشكول إلى واشنطن. وطلب منها أن تعلن على الملأ تأكيد التزام أمريكا بأمن إسرائيل، وخصوصاً من خلال تسريع صفقة بيع إسرائيل دبابات باتون (Patton) وطائرات سكاي هوك (Sky hawk). كتب باربر (Barbour) إلى مسؤوليه يدعم الصفقة قائلاً: «يجد إشكول نفسه في مأزق، ولسوف يقدر عاليا تماسك الأيدي قدر الإمكان». ولكن القيود التي كان يفرضها الكونغرس على نقل الأسلحة، والتي كانت شديدة في ضوء فيتنام حالت دون إتمام هذه الصفقة، إضافة إلى أن مقاومة إسرائيل لعمليات تفتيش مفاعل ديمونة قد أسهمت في إحباط هذه الصفقة. ومع ذلك لم يكن لدى جونسون مانع أن يدعم إسرائيل بالقول؛ أما الأسلحة فكانت خارج الموضوع تماماً. (٤٤)

ازداد موقف أمريكا المعارض للتورط العسكري مع إسرائيل وضوحاً عندما أخبر إشكول مجلة نيوز أندو ورلد ريبورت (News sand World Report) الأمريكية أن إسرائيل تتوقع مساعدة الأسطول السادس في حال نشوب حرب. رد العالم العربي بقسوة، فألغيت زيارات السفن الأمريكية لمينائي بيروت والإسكندرية، واصفة إياها

بأنها «قاعدة امبريالية تطفو فوق البحار»، كما قال الأتاسي، الرئيس السوري، واعداً بأن «البحار العربية ستبتلع أجسادهم (الأمريكيين) وتتغذى أسماكها عليها».

فسارعت وزارة الخارجية الأمريكية إلى الإعلان بأنه لا يوجد أي التزام كهذا من جانب القوات الأمريكية المسلحة، مُلَمّحة إلى أنه في حال وقوع قتال في الشرق الأوسط فإن الأسطول السادس سيظل محايداً. (٤٥)

بذل آخر جهد لإيجاد بديل عن العنف، ليس في الولايات المتحدة، بل في مكان لا تحبه إسرائيل وهو «الأمم المتحدة». ناشد سفير إسرائيل إلى الأمم المتحدة جدعون رفائيل (Gidoen Rafael)، يوثانت (Uthant) الأمين العام للأمم المتحدة أن يتحدث ضد الدعم السوري للإرهاب، وعلى الرغم من أن يوثانت نادراً ما ينتقد العرب، فإنه لم يستطع تجاهل الأدلة على تورط سوريا في الهجمات الفدائية. فأدان في مؤتمر صحفي عقد في ١١ مايو (آيار) تلك الهجمات واصفاً إياها بأنها «تبعث على الأسى»، وخيبة أمل، وتشكل تهديداً للسلام، ومخالفة لنص اتفاقية الهدنة وروحها. «مبدياً ملاحظة» أن الغارات تدل على أن الأفراد الذين يقومون بها مدربون تدريباً خاصاً أعلى من مستوى التدريب المألوف، الذي كان يظهر في عمليات فتح السابقة». ودعا يوثانت جميع «الحكومات» المسؤولة إلى وقف هذه الأعمال.

إن هذا اللوم غير المسبوق لدولة عربية صادر عن أعلى مسؤول رسمي في الأمم المتحدة، والذي بدا وكأنه انتصار لإسرائيل، لم يسفر عن شيء يذكر. كما لم ينعقد مجلس الأمن لمناقشة القضية أبداً بسبب معارضة السوفيات، ولعدم اعتراف ثلث أعضاء المجلس برئيسه الحالي التايواني. أدانت سوريا تصريح يوثانت، إذا ادعى سفير سوريا إلى مجلس الأمن جورج طعمة (George Tomeh) أن تصريحه يعد صفحاً عن استخدام إسرائيل للقوة» (٦) وبسبب شل مجلس الأمن، ومداهنة العرب ومسايرتهم، أحجم الأمين العام عن اتخاذ أية مبادرة؛ وهكذا أسقط الأمر.

ولدى فشل رابين في الولايات المتحدة والأمم المتحدة لجأ إلى خطاب التحدي في حديث له إلى مجلة جيش الدفاع الإسرائيلي باما هين (Bamahane) قائلاً: «إن الرد الإسرائيلي على الأردن ولبنان يكون مناسبا فقط لدول غير مهتمة بالهجمات الإرهابية التي تشن ضد رغبتها وإرادتها، أما بالنسبة لسورية فالأمر مختلف، لأن النظام يرعى الارهابيين؛ ولهذا سيكون جوهر الرد على سوريا مختلفاً».

اعتقد إشكول، والعديد من أعضاء الحكومة، أن رابين كان مغاليا في تهديده، وانتقدوه على ذلك؛ ولكن خرج رئيس الوزراء بعد ذلك بصيغ من التهديد خاصة به، إذ قال مخاطبا منتدى لحزب الماباي (Mapai) في ١٢ مايو: «ليس لدينا خيار. إذ ربما نضطر إلى العمل ضد مراكز العدوان وأولئك الذين يشجعونهم، بوسائل لا تقل خطراً عن تلك التي استخدمناها في السابع من إبريل. وصرح في اليوم التالي عبر الإذاعة الاسرائيلية: «لا حصانة لدولة تشجع عمليات التخريب ضدنا، وسوريا هي رأس حربة مثل هذه العمليات». وصدرت بيانات أكثر التهابا، ليس عن إشكول ورابين فحسب، بل أيضاً عن جنرالات مثل ديفيد إلعازر (David Elazar) قائد الجبهة الشمالية، وعن رئيس المخابرات العسكرية أهارون ياريف (Aharon Yariv)، فالتقطت الصحافة الأجنبية معظمها وضخّمتها. يذكر عيزرا وايزمن في مذكراته بعد سنوات: «كانت سمة تلك الأيام الخطابات الطنانة (لا، بل أكثر من طنانة رنَّانة».(٤٧)

لقد أصابت التعليقات الإسرائيلية اللاذعة السوريين في مفصل حساس، عندما كانت المعارضة الإسلامية اليقظة وتجار الطبقة الوسطى تشكل تهديداً متزايداً للبعث. وحذر الرئيس الأتاسي إسرائيل إذا شنت هجوماً على سوريا، بقوله: «ستشن سوريا حربا شعبية تشارك فيها كل الجماهير العربية» وأخبر إبراهيم ماخوس، وزير الخارجية السوري، السفير سميت (Smythe) بوجود مؤامرة إمبريالية ضد دمشق، و«بوجود احتمال قيام إسرائيل بعدوان كبير في المستقبل القريب». فالجنود الإسرائيليون يحتشدون في المناطق المنزوعة السلاح، كما ادعى.

وعندما اقترح عليه سميث أن يكبحوا جماح الفدائيين، رد عليه قائلاً: «إن سوريا ترفض تحمل مسؤولية قتال الفلسطينين من أجل وطنهم المسلوب. القضية الفلسطينية مقدسة وينبغي ألا تموت أبداً».

وبدلاً من أن تردع تصريحات إشكول ورابين دمشق عن القيام بمزيد من الاعتداءات، فإنها حثتها على مضاعفة الدعم لفتح.

نفذت هذه المنظمة غارة في ٩ مايو عبر الحدود السورية، وأخرى في ١٣ مايو عبر الحدود الأردنية - تسلل شاب أسمر يتكلم العبرية عالي التدريب ويحمل جواز سفر بريطاني، بعد أن عبر بحر الجليل (بحيرة طبريا) على قارب أقلع من منطقة ساحلية تقع تحت سيطرة الجيش السوري. ولدى اعتقاله وجد معه كمية كبيرة من المتفجرات، وأجهزة تفجير كان ينوي استخدامها، حسب اعترافه، لاغتيال زعماء إسرائيليين. (٤٨)

يمكن أن تنجح إسرائيل في استباق مواجهة كبرى مع سوريا بمضاعفة الفرص لمواجهة واحدة. يمكن تكرار ذلك النموذج نفسه بجدل يدور في ذلك الشهر (مايو) حول العرض الذي يقام في عيد استقلال إسرائيل.

وبما أن هذه الاستعراضات تقام في مدن مختلفة بصورة دورية فإن استعراض العام ١٩٦٧ كان مقرراً أن يتم في القدس الغربية الإسرائيلية في ١٥مايو، وهي المرَّة الأولى منذ تسعة عشر عاماً من تاريخ البلاد يتطابق التأريخان العبري والغريغوري ليوم الاستقلال.

لقد أثار وجود أعداد هائلة من الجنود الإسرائيليين في المدينة المقدسة احتجاجات في طول البلاد العربية وعرضها وخصوصاً في الأردن، رغم أن ذلك لا يعد خرقاً لاتفاقيات الهدنة. كما أن الأمم المتحدة عارضت الاستعراض، وكذلك القوى الغربية التي منعت سفراءها من حضور الاستعراض.

نبذ إشكول هذه المعارضة مشيراً إلى أن الأردن التي حرمت اليهود من الوصول إلى الجدار الغربي وإلى جبل الزيتون انتهاكاً منها لاتفاقيات الهدنة لا يحق لها أن

تعترض على ما تفعله إسرائيل في الجانب الخاص بها من المدينة. ومع ذلك، حذف إشكول، في محاولة منه لتخفيف حدة التوتر، بعض الأبيات الشعرية العسكرية من قصيدة كان المقرر ألقاؤها في تلك المناسبة من الشاعر الإسرائيلي ناتان ألترمان (Natan Alterman) ووافق على عدم عرض أسلحة ثقيلة في القدس (٤٩) وعلى الرغم من احتجاج رابين على هذه القرارات، إلاّ أنه وافق أخيراً. فلم تشارك قطع مدفعية أو مدرعات في العرض العسكري.

وبعد فترة من عدم التناغم في ردود الفعل على التهديد السوري، تجنب رئيس الوزراء ورئيس الأركان معاً حدوث أزمة صغيرة في القدس.

فلم يكن أيّ من الرجلين مدركا، على أية حال، مدى ما يمكن أن يثيره ذلك التلافي للأزمة من هيجان أوسع وأكثر دموية.

فعل ورد فعل

لم يساور القادة المصريون أدنى شك من أن كارثة وشيكة سوف تقع. غادر أحدهم، وهو أنور السادات، البلاد في ٢٩ إبريل في مهمة لا علاقة لها بالصراع العربي الإسرائيلي. كانت مهمته مجرد زيارة مجاملة إلى بعض الشخصيات السياسية في منغوليا وكوريا الشمالية، ويعود عن طريق موسكو. تنبأت السفارة الأمريكية في القاهرة قائلة: «لا نتوقع أن تسفر هذه الزيارات عن أي شيء ذي أهمية».

يعزى افتقار الأمريكيين لأية توقعات من هذه الزيارات إلى السادات نفسه، ذلك الشخص العادي جداً الذي لم يتسلم قط أي منصب عسكري خطير، يعمل كناطق باسم الجمعية الوطنية لا ضرر منه بيد أن مظهر السادات الخارجي -طويل، شديد السمرة، صموت- كان يخفي وراءه سجلاً يحتوي على دخوله السجن مرتين لكونه عميلاً لألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية وبتهمة اغتيال مسؤول مصري موال لبريطانيا. وبوصفه أحد المشاركين في ثورة يوليو ١٩٥٢، احتفظ فيما بعد بروابط مع

الإخوان المسلمين وعارض الاتصالات السرية مع إسرائيل. ربما بفضل هذه القاعدة الأيديولوجية الراسخة، وولائه الثابت للنظام، وثق به عبد الناصر. وإن لم تكن ثقته نابعة من تَيْنِكَ الصفتين، فربما تكون نابعة من كون السادات مطيعاً جداً للرئيس.

أمّنهم السوفيات ذلك، وأكدو أن رحلته سوف تشمل لقاءات مع رئيس الوزراء كوسيغن (Kosygin) والرئيس بودغورني (Podgony) ووزير الخارجية أندرية غروميكو (Andrei Gromyko) ونائبه سيميونوف (Semyonoav) تبين أن المحادثات أكثر من مجرد تبادل التحية والتمنيات الطيبة. إذ أخبر الزعماء السوفيات السادات بعبارات تحذيرية بوشوك غزو إسرائيلي لسوريا يهدف إلى الإحاطة بالبعث. وعلى الرغم من أن الكرملين قد وجه إنذاراً صارماً للسفير الإسرائيلي، فقد احتشد ١٢ لواء إسرئيلياً على الحدود السورية جاهزة للتقدم في أي وقت بين ١٦و ٢٢ مايو. وقال بودغورني للسادات: «يجب ألاّ تفاجؤوا .ستكون الأيام القليلة القادمة مصيرية، وسوريا سوف تواجه وضعاً صعبا ولسوف نساعد سورية في ذلك الوضع الصعب». ولتأكيد معلوماتهم وتعزيزها استشهد السوفيات بغياب المدرعات والمدفعية من العرض العسكري في القدس يوم عيد الاستقلال - وادعوا أن ذلك يعد دليلاً ملموساً على أن هذه الأسلحة قد حركت إلى الشمال. (٥٠)

يظل سبب التحذير الروسي هذا غامضاً تاركاً المجال لسلسلة طويلة من النظريات تتعلق بالسبب الذي دعا السوفيات إلى تقديم هذا التحذير في مثل هذا الوقت المفصلي بالذات، وما هو المكسب الذي كانوا يسعون إلى الحصول عليه. فكر البعض أن موسكو قد اخترعت الأزمة لدعم هيبة عبد الناصر وتصليب التحالف السوري السوفياتي. وتقول بعض الفرضيات أن السوفيات كانوا يسعون لإغراء عبد الناصر ليخوض حرباً ضد إسرائيل وتدميره وبالتالي إخلاء الساحة للهيمنة السورية ودخول الكوادر الشيوعية. وكان الوقت مناسبا لاستغلال انشغال أمريكا في فيتنام، كما قال بعض الخبراء، للحد من نفوذ الصين المتزايد في المنطقة، وتوجيه ضربة ساحقة للصهيونية، وذهب بعضهم إلى القول إن أمريكا هي التي سربت المعلومات

حول خطط إسرائيل للهجوم، من أجل تخفيف الضغط المصري على بلدان الخليج، أو أن إسرائيل نفسها كانت هي مصدر هذه المعلومات سعياً وراء إشعال حرب برية واسعة. فقد لام بعض المسؤولين السوفيات فيما بعد سوء فهم المخابرات التي تم تلقيها من عملاء الـ KGB داخل إسرائيل فيما يتعلق بقيام إسرائيل بعمل انتقامي ضد سوريا. قال أحد أعضاء مجلس السوفيات الأعلى، كارين بروتنز (Carin Bru-tenz) «إن المعلومات لم تكن مؤكدة وكانت بحاجة إلى مزيد من التقصي؛ ولكن سيميونوف لم يتمالك نفسه فمرر المعلومة إلى المصريين». (٥١)

في خضم هذه التخمينات ضاعت حقيقة أنه لم يكن في هذا التحذير السوفياتي للسادات أي جديد، فمثل هذه التقارير التي تشير إلى عدوان إسرائيلي على سوريا مازالت تتكرر خلال السنة المنصرمة.

لقد لوحظ أن تلك التحذيرات كانت تعكس انقسامات عميقة في قيادة الكرملين، والمفاهيم المختلفة للمصالح السوفياتية في الشرق الأوسط - في منتصف الطريق بين تلافي جميع الصدامات في المنطقة أو إغراقها في حرب. كان السوفيات الذين توقعوا تماماً قيام إسرائيل بعمل انتقامي ضد سوريا، يسعون لمنع نشوب حرب من نتائجها المحتملة هزيمة العرب، وحدوث مواجهة بين القوى العظمى. ومع ذلك كانوا يسعون في الوقت نفسه إبقاء المنطقة في حالة توتر لتذكير العرب بحاجتهم إلى مساعدة السوفيات. ومن هنا كان التأكيد على دور مصر في ردع الاسرائيليين، ومن هنا كان ذكر عشرة ألوية أو اثني عشر لواء اسرائيلياً محتشدة على الحدود. كما أن ميل أصحاب القرار الشيوعيين السوفيات للتأثر بدعايتهم هم المتعلقة بخيانة الإمبرالية وغدر الصهيونية، تلك السمة التي يسميها مجلس الوزراء البريطاني بـ «الانحراف الأيديولوجي» قد لعب دوراً في تضخيم التهديد الذي كانت تشكله إسرائيل لسوريا. (٥٢)

وأخيراً ثبت أن السبب الذي من أجله تصرف السوفيات بتلك الطريقة أقل أهمية من الطريقة التي رد فيها المصريون. إذ عاد السّادات إلى القاهرة بعد

منتصف ليلة الرابع عشر من مايو وأسرع على الفور إلى بيت عبد الناصر. فوجد هناك الرئيس والمشير عامر يبحثان التقرير السوفياتي. وكانت تفاصيل أخرى عن الحشد الإسرائيلي قد وصلت وزارة الخارجية المصرية عن طريق السفير السوفياتي ديمتري بوجيداييف (Dimitri Pojidaev)، ووصلت إلى رئيس المخابرات المصرية صلاح نصر عن طريق عميل محلي للمخابرات السوفياتية (KGB). ثم وصلت رسالة مماثلة -قبل غيرها- من دمشق، تقول:

«لقد علمنا من مصدر موثوق أن أولاً: إسرائيل قد حشدت معظم احتياطيها. وثانيا: ركزت معظم قواتها على الحدود السورية، وتقدر بـ ١٥ لواء. وثالثاً: يخطط الإسرائيليون بهجوم واسع النطاق على سورية بما في ذلك إنزال مظلي، وذلك فيما بين ١٥ و٢٢ مايو (آيار).»

كذلك ادعى عامر باعتزاز انه رأى صوراً فوتوغرافية تؤكد الحشودات الإسرائيلية. (٥٣)

لقد شاعت في الأشهر الأخيرة ادعاءات سورية بتوقع حدوث غزو وشيك وأن عبد الناصر تجاهلها على الفور. ولكنه لم يعد بإمكان تجاهل مثل هذه التحذيرات النوعية من مصادر سوفياتية عديدة بما فيها الكرملين نفسه. ولدى النظر إلى هذه المعلومات على ضوء بيانات إشكول ورابين التهديدية، وعدم وجود أسلحة ثقيلة في الاستعراض العسكري الإسرائيلي، اعتبرت المخابرات أنها أمسكت بحلقة الحقيقة. فقضى ناصر وعامر الجزء الأعظم مما تبقى من تلك الليلة يبحثان تشعبات هجوم إسرائيلي على سوريا، واحتمالات الرد المصري، بما في ذلك إخراج قوات الطوارئ الدولية من سيناء. وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً قررا دعوة هيئة الأركان العامة في غضون أربع ساعات واتخذا القرار اللازم بشأن تصرف الجيش. (٥٤)

ما كان للقرار أن يتخذ من منطلق الشهامة والعزة. فقد بدأت الأزمة الاقتصادية تظهر على الجيش الذين استمرت رتبهم بالتضخم رغم العجز في الميزانية «وظهر

هذا العجـز في الصيانـة المتدنية -كـان يتوافر ثمـانية طيـارين لكل طـائرة عاملة- وفي إيقاف جميع التدريبات تقريباً. بيد أن العيب العسكري لم يكن ماليا فقط. إذ كانت المناصب العليا توزع على أساس القرابة الأسروية أو الروابط السياسية، وليس على أساس الاستحقاق والميزات، في حين كان يتم اختيار المرؤوسين عن عمد ممن هم غير أكفاء كيلا يشكلوا تهديداً لقادتهم. لم يكن الولاء بين الضباط قوياً، وكان الولاء بينهم وبين الجنود أكثر ضعفاً.

قال الجنرال ريكهاي (Rikhye) من قوات الطوارئ الدولية: «كنت دائما أشعر بالأسى تجاه المصريين الذين تم التخلي عنهم في سيناء، عندما أخذ عدد كبير من ضباطهم إجازات طويلة في نهاية الأسبوع في القاهرة».

وعلى الصعيد البنيوي لم يكن هناك إطار للتعاون أو نظام اتصالات بين القوات الجوية والبرية والبحرية. وكانت الأوامر تسلك طرقاً دائرية واسعة قبل أن تصل إلى الجنود في الميدان، حيث تنعدم المبادرة. كان معيار النجاح يتمثل في الأيدلويوجية وليس في الأداء.

شكى الجنرال عبد المنعم خليل قائد سلاح المظلين المصريين قائلاً: «لدينا أكداس من الكتب والبروشورات حول أمجاد ثورة ٢٣ يوليو. ووصفت الكتب بحالة جيدة وكانت تُفَتَّشَ باستمرار، وكانت هي أساس تحديد المقدرة القتالية للوحدة. وكان الضباط يسخرون منها، ومع ذلك أخذوها معهم إلى اليمن ليظهروا ولاءهم». (٥٥)

اطلع عبد الناصر على عيوب الجيش بطرق تعزز معارضته الثابتة منذ زمن لخوض أي حرب ضد إسرائيل. فعلى الرغم من أن خطابه ظل ناريا كما هو، إذ طمأن طلاب كلية الحقوق في جامعة الإسكندرية في العاشر من مايو، قائلاً: «نريد أن نقاتل من أجل تحرير فلسطين واستردادها» فإنه لم يتخذ أية خطوة ملموسة رداً على المعارك الجوية التي جرت في السابع من نيسان. كما كان سفير مصر إلى واشنطن مصطفى كامل يحيط الأمريكان علما بالاستمرار بالتزام عبد الناصر

بإبقاء قضية إسرائيل «في الثلاجة» إلى أن تصبح واشنطن راغبة في إعادة النظر في سياستها المتعلقة بمساعدات مصر. كتب وولت روستو (Walt Rostow) في مذكرة داخلية إلى الرئيس، يقول فيها: «في حين أن ما من أحد يحب فكرة الدفع لاحتواء شخص ما، فإن عبد الناصر يظل أقوى شخصية في الشرق الأوسط.. وقد كبح جماح العرب الأكثر شراسة الذين يدفعون باتجاه معركة إسرائيلية - عربية كارثية حاسمة». (٥٦)

ما لم يكن يعرفه الأمريكيون هو وجود قوة عسكرية موازية في مصر تضغط باستمرار من أجل شن حرب ضد إسرائيل. إذا كان العديد من الجنرالات يعتقدون أنه، بغض النظر عن العيوب الموجودة، فإن لدى الجيش المصري أضعاف أضعاف ما تملكه إسرائيل من الطائرات والدبابات والمدافع، وأن التفوق العددي وحده كاف لضمان النصر العربي. أما إسرائيل التي يعمها الفساد الأخلاقي والركود الاقتصادي، لم تعد تلك القوة الساحقة التي كان يخشاها المصريون ذات يوم؛ لذلك لا بد من ضربها قبل أن تبدأ هي هجومها ضد سوريا والأردن. وقال صدقي محمود بإعجاب: «إن نظام الإنذار والدفاع الجوي لدينا قادر على اكتشاف أي هجوم جوي معاد وتدميره مهما كان عدد الطائرات المشتركة فيه، ومهما كان الاتجاه الذي تأتي منه. وبفضل مظلة الصواريخ الروسية فإن المدرعات المصرية تستطيع التقدم دون إعاقة. كان عامر بصورة خاصة صريحاً في ثقته. إذ كتب المشير إلى عبد الناصر في مطلع مايو قائلاً: «ليست قواتنا المسلحة بقادرة على صد إسرائيل فحسب، بل هي قادرة أيضاً على التوجه شرقاً، وتستطيع مصر أن توطد موقعاً تفرض منه شروطها السياسية وتجبر إسرائيل على احترام الحقوق العربية والفلسطينية». (٥٧)

لم يغو مثل هذا المديح للقوات المصرية عبد الناصر الذي كان يذكر مستشاريه دائماً بأن مصر لن تحارب إسرائيل وحدها، بل سوف تحارب الولايات المتحدة كذلك.

ولكن السؤال الجوهري لم يعد ما إذا كان الجيش المصري قادراً على السيطرة على إسرائيل، بل ما إذا كان حكم عبد الناصر سيصمد إذا ما فشل في الدفاع عن سوريا مَرَّة أخرى. إن الإحاطة بالبعث سيضمن انهيار جميع الأنظمة التقدمية في المنطقة كلها -على طريقة الدمينو- بدءاً من العراق ومروراً باليمن وربما انتهاء بمصر نفسها.

لقد ثبت أن معاهدة الدفاع المشترك بين سوريا ومصر لا فائدة منها، وأن هيبة عبد الناصر قد تقلصت لدى السوفيات. قال عبد الناصر لهيكل عبر الخط المشفّر بين مكتبهما: «يمكن أن تنهار الجبهة الشرقية. وسوف تجد مصر نفسها تواجه إسرائيل وحدها». لأنه بعد السموع وبعد السابع من إبريل لم يعد بإمكان عبد الناصر أن يجلس جانبا يتفرّج على المشهد». (٥٨)

ومع ذلك لا يستطيع أن يعهد لعامر بقيادة المعركة. فالتوتر بين الرئيس ومشيره كان مازال عاليا. وبما أن خشية عبد الناصر من الفتنة والعصيان كانت تتعاظم فقد عيَّن ضباطاً متقاعدين ليكونوا مصدر معلومات حول مدى نفوذ عامر في الجيش. ولكن عبد الحكيم عامر كبح هذه الحركة، ثم رفض عرض عبد الناصر تعيينه رئيس وزراء مقابل تخليه عن قيادة الجيش. وبدلا من ذلك ازداد نفوذ عامر في الجيش لدرجة أن وزير الدفاع شمس بدران، ورئيس أركان القوات الجوية صدقي محمود، صنيعتي عبد الحكيم عامر، استطاعا تحييد رئيس هيئة الأركان العامة، فوزي، الموالي لعبد الناصر. أبدى عامر إشارات تفيد بأنه يريد استغلال تصاعد الأزمة في الشمال لرفع مكانته أكثر بفضل قيادته للجيش في معركة مظفرة مجيدة. (٥٩) سعى عبد الناصر منع ذلك، واستعادة امتيازاته في الوطن، وزمام المبادرة في المنطقة ليثبت للعرب أنه هو -وليس عامر ولا سوريا- خير مدافع عنهم ضد إسرائيل.

اجتمعت هيئة الأركان العامة المصرية، كما هو مقرر، في مقر القيادة العليا في الساعة ١١,٣٠ برعاية المشير عامر. أجرى رئيس المخابرات العسكرية اللواء

محمد أحمد صادق مسحاً للمعلومات التي تلقوها من مصادر سوفياتية وسورية ولبنانية فيما يتعلق بالحشود الإسرائيلية على الحدود السورية واحتمال قيام إسرائيل بهجوم عليها في وقت ما بين١٧ و٢١ مايو. ثم أخذ عامر بزمام الاجتماع، وأمر بوضع سلاح الجو كله والجنود على الجبهة في حالة تأهب قصوى، واستدعي الاحتياط للالتحاق بالخدمة الفعلية. وقال: إنه ينبغي أن يتقدم الجيش خلال فترة تتراوح بين ثمان وأربعين إلى اثنتين وسبعين ساعة في سيناء ويأخذ مواقع على ثلاثة خطوط من خطة «القاهر». وينبغي أن يكون الانتشار دفاعيا، أما العمليات الهجومية فلا تستبعد. وفي هذه الأثناء كان الجنرال فوزي يطير على جناح السرعة إلى دمشق ليطمئن القادة السوريين أن مصر جاهزة للقتال بكل ما لديها من إمكانات، «لتدمير سلاح الجو الإسرائيلي واحتلال أراضي إسرائيل». (٦٠)

وفي حين كانت هيئة الأركان تدرس الوضع، كان عبد الناصر في ميدان التحرير، في مكتب الدكتور محمد فوزي رئيس مستشاريه في الشؤون الخارجية. كان فوزي كالسادات، يتمتع بإمكانية الوصول إلى الرئيس في أي وقت. ووصفه مكتب وزارة الخارجية البريطانية بـ «العميل الموثوق (لعبد الناصر)، والمفاوض القدير والدبلوماسي الداهية.. يتقن صياغة سياسات من هم أكثر فظاظة بأكثر العبارات اعتدالاً. كان الموضوع الذي يبحثونه حساساً جداً، وهو احتمال إجلاء قوات الطوارئ الدولية من سيناء. إذ على الرغم من تشدد عامر وإصراره على إخراجها بأكملها من سيناء كلها، كان عبد الناصر أقل صراحة في هذا الموضوع وأقل حماسة له. وربما انطلاقاً من عدم رغبة عبد الناصر في الدفاع عن غزة -التي تعد أكثر أهداف إسرائيل احتمالاً في حال نشوب حرب- أو من عدم رغبته الاستعاضة عن الأزمة في سوريا بأزمة في سيناء، كان عبد الناصر لا يريد إعادة قواته إلى شرم الشيخ.

ذلك لأن الجنود المصريين إذا عادوا إلى تلك المنطقة فإنهم لن يقبلوا رؤية السفن الإسرائيلية تعبر تيران أمام أعينهم. وهذا يعني أنه لا بد من إغلاق المضائق ثانية، وبالتالي فإن إسرائيل سترد على ذلك بتوجيه ضربة إلى مصر.

كان فوزي مستعداً بما لديه من وثائق تؤكد أن عبد الناصر يملك السلطة المطلقة لطرد قوات الطوارئ الدولية دون الحاجة إلى مراجعة سابقة للأمر من قبل الجمعية العمومية للأمم المتحدة أو من مجلس الأمن. فضلاً عن ذلك، قدم فوزي اقتراحاً بأن يصدر عبد الناصر أمراً لقوات الطوارئ الدولية بالرجوع عن حدود مصر إلى غزة وشرم الشيخ، ويمكن أن توجه التعليمات بهذا الشأن إلى الجنرال ريكهاي (Rikhye) بدلاً من توجيهها إلى يوتانت، وبهذا تكون مصر قد أكدت على طبيعة قوات الطوارئ الدولية العملية بدلاً من التوكيد على طبيعتها القانونية. أحدثت هذه المناقشات انطباعاً حسناً لدى عبد الناصر، وكان واثقاً من النجاح. وقد دلَّت اتصالاته المسبقة مع الهند ويوغوسلافيا أكبر دولتين مشاركتين في قوات الطوارئ الدولية، ومع يوتانت أنهم سوف يوافقون على إعادة توضيع القوات. (٦١)

في حين أعد فوزي رسالة إلى ريكهاي (Rikhye)، قام عبد الناصر بمراجعة قرارات هيئة الأركان العامة وإجراء مشاورات مع عدد من المسؤولين الكبار ومن بينهم نائب رئيس الجمهورية، زكريا محيي الدين (Zakariya Muhieddin). وما إن حل العصر حتى كانت الخطة قد أخذت طريقها إلى التنفيذ. إذ أعلنت حالة طوارئ قومية؛ وألغيت إجازات الجنود والشرطة، وعُطّلت تأشيرات الخروج الممنوحة إلى الطلاب. وضوعفت الحراسة على الجسور والمباني العامة، بيد أن هذه الإجراءات التي عُلِلت بـ «بالتوتر على خطوط الهدنة السورية - الإسرائيلية، والحشود العسكرية الإسرائيلية الهائلة، وتهديدات إسرائيل ومطالبها العلنية لمهاجمة سوريا»، لم تكن سوى عرضٍ ثانوي لموكب الجيش الذي كان يعبر القاهرة. إذ سار آلاف الجنود في موكب عبر مركز المدينة بدءاً من الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر، مارِّين بالسفارة الأمريكية، تحت إشراف عامر شخصياً. وكان المشير قد أصدر تعليمات

في غاية السرية لقادة الجيش يحثهم على أن يكونوا يقظين لكل التطورات السياسية منها والاستراتيجية من أجل أن يقرر المكان المناسب والزمان الملائم للبدء بعمليات عسكرية ناجحة».

قال محمد أحمد خميس، ضابط الاتصالات في الفرقة السادسة والضابط المتمرس في حرب اليمن والحاصل على أوسمة: «تجمعت قواتنا على عجل، واتجهت نحو الجبهة. تحركنا بدون إعداد، وبدون اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمناورة عسكرية، وشهد الفريق أنور القاضي، رئيس عمليات هيئة الأركان بقوله: «لم تعلم قيادتنا بالأوامر التي صدرت إلى الجيش مباشرة من القائد الأعلى، عامر. سعى الزعماء السياسيون المصريون إلى تصعيد الوضع -دون أن نعرف السبب- في حين دفعت أوامر متناقضة ومستمرة بفرق كاملة إلى سيناء، دون تخطيط أو أهداف استراتيجية». (٦٢)

وأخيراً وصلت تلك الفرق إلى قناة السويس بعد أن قطعت طريقين ضيقين، وتبللوا بوابل من مطر أواخر فصل الربيع. وهناك صادر الجنود قوارب العبور التي كانت تستخدم لتزويد قوات الطوارئ الدولية بالمؤن، وعبرو القناة وانتشروا في سيناء.

فلو كانت مصر تنوي مهاجمة إسرائيل على الفور، لتم تقدم الجيش المصري بهدوء وتحت جنح الليل. ولكن، بدلاً من ذلك، كان التحرك علنياً، واعتبراه رسالة مزدوجة من عبد الناصر إلى إسرائيل تعني: «أن ليس لمصر نوايا عدوانية، ولكنها في الوقت نفسه لن تتحمل أي اعتداء إسرائيلي على سوريا. ولكن هذه الرسالة نفسها حَيَّرت القيادات المصرية لأنهم تركوا بدون تعليمات محددة بشأن ما ينبغي أن يفعلوه في سيناء. قال الجنرال فوزي: «سحبت قواتنا من القاهرة ودفعت إلى سيناء إلى مواقع تجمع لم تكن قد أنشئت من قبل أبداً. ثم برز سؤال هو: «ما هي مهمتنا؟» أسئلة مماثلة طرحت في وزارة الخارجية المصرية حيث لم تكن معلومات محمود رياض بأكثر من المعلومات المتوافرة لدى أقرانه العسكريين، بل أقل. لم تكن هناك مذكرات، ولا تقييمات سوى ما قرأه الدبلوماسيون في الصحف.

فإذا كان عبد الناصر مدركا لهذه الفوضى، فإنه يكون قد بدا عليه عدم الانزعاج. إذ إن الهدف المتمثل بإعلان مصر أنها ما زالت قوة هائلة، رغم وجود أكثر من ٥٠,٠٠٠ جندي في اليمن قد تحقق بصورة مذهلة. شهد علي صبري، أحد الشخصيات القوية في حاشية عبد الناصر، بقوله: «إن القوات الموجودة في اليمن ليست مهمة بصورة خاصة. فوحداتنا المدرعة الرئيسة كلها في مصر، وكذلك سلاحنا الجوي». إن سير الجيش في وضح النهار ربما يردع الإسرائيليين ويسترد كبرياء مصر.إذ سوف يفوز عبد الناصر في حرب الدعاية دون أن يضطر إلى إطلاق عيار ناري واحد. (٦٣)

حدث ذلك كله ولم يكن لدى إسرائيل أي دليل. إذ لم يكن لدى إشكول ورابين وقت -بسبب انشغالهما باحتفالات عيد الاستقلال- للتعامل مع ادعاء آخر من ادعاء السوفيات بوجود تهديات ضد سوريا. التقى رئيس الوزراء بيتشو فاخين (Chuvakhin) وأكد له، كما أكد له في السابق، أن جيش الدفاع الإسرائيلي لا يخطط لاحتلال دمشق، ودعاه ليقوم بجولة تفتيشية في الحدود الشمالية بنفسه، فإذا كان يحتشد هناك ١٢ لواء - أي حوالي ٤٠,٠٠٠ جندي، ٣,٠٠٠ عربة - فإن السفير سوف يراها بلا شك. ولكن تشوفاخين الأشقر ذا الصدر المكور، الفكه اللطيف، أجاب ببساطة قائلاً: إن وظيفته هي إيصال الحقائق السوفياتية وليس التدقيق فيها. ودعي السفير السوفياتي مرتين لزيارة الشمال، وطلب منه التدخل لكبح سوريا، ولكنه رفض في المرتين. ومع ذلك قلة في إسرائيل هم الذين شعروا باقتراب الأزمة. وعندما قال تشوفاخين في حديث له مع أربيه ليفافي (Arye Le-vavi) المدير العام لوزارة الخارجية: «عليكم أن تنالوا عقاباً على تحالفكم مع الإمبريالية، وإنكم سوف تفقدون الوصول على البحر الأحمر»، لم يشعر أحد في القدس بأي ذعر. (٦٤)

ولم يكف الإسرائيليون عن التفكير فيما إذا كانت هذه التحذيرات السوفياتية ذاتها قد وصلت إلى مصر، وإن كان كذلك، هل سيتصرف عبد الناصر بناء على

ذلك أم لا. وبناء على جميع التقارير التي تلقتها إسرائيل من الأمريكيين، وبموجب تقارير أجهزتها المخابراتية؟ لم يكن عبد الناصر مهتما بإراقة الدماء، وحتى إنه لم يغلق الباب أمام تسوية سلمية في المستقبل. بل أكثر من ذلك ظل الزعيم المصري يدعم وجود قوات الطوارئ الدولية غير آبه بالدعاية العربية -وخصوصاً الأردنية- الموجهة ضد هذا الدعم. بدأت إسرائيل تقيّم رغبة مصر في القتال منذ أيام العام ١٩٦٥ القاتمة واجتماعات القمم العربية. وبما أن الاقتصاد المصري كان مضطربا وفي هبوط، والوحدة العربية قد سحقت، فإن عبد الناصر سيكون أحمقاً إذا ما أقدم على تحدي إسرائيل التي تدعمها فرنسا والأسطول السادس الأمريكي. وفي نظر الإسرائيليين، يمكن للحرب أن تنشب، فقط إذا شعر عبد الناصر أنه قد حقق تفوقه العسكري على جيش الدفاع الإسرائيلي، وإذا ما ألمت بإسرائيل أزمة اقتصادية، وعزلت عن العالم، وهما أمران لن يلتقيا أبداً. (٦٥)

ومع ذلك، بقي إشكول، غير متأكد. كان مدركا للبيئة العربية - العربية، وتنافس القوى العظمى المحيطة بإسرائيل، وكان يرد عليها بالمزيج من الثقة بالنفس والخوف والتهور والجبن الذي جعل تلك البيئة متفجرة. وهكذا فقد قال في خطابه الذي ألقاه في الاحتفال بيوم الذكرى في ١٣ مايو، متبجحاً: «الحزم، والموقف الثابت.. هما اللذان عززا إدراك جيراننا بأنهم لن يقدروا على الصمود أمامنا في قتال مكشوف «إنهم يتراجعون اليوم عن أي صدام وجهاً لوجه.. ويرجئون تاريخ مثل هذه المواجهة إلى المستقبل البعيد». ولكنه بعد ذلك في خطاب إلى قيادة حزب الماباي حذرهم هو نفسه قائلاً: «إننا محاطون بعداوة، إن لم تنجح حتى اليوم، فإنها ربما تنجح غداً أو بعد غد. إننا نعلم أن العالم العربي مشطور الآن إلى شطرين.. ولكن الأمور يمكن أن تتغير». (٦٦)